توما الخوري

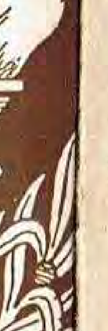
مغامرات "أوليس"

رواية

الابطال

توما الخوري

مغامرات اوليس





بيت الحكمة

بيروت

منشوراتنا القصصية

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود
٣	حدثني يا ابي	لكامل العبد الله
٤	اسرى الغابة	لانطوان مسعود
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود
٦	يوم عاد ابي	لرشاد دارغوث
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريّب
٨	جدتي	لجبران مسعود
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني
١٠	عازفة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود
١٦	المغني الكبير	لروز غريّب
١٧	جلجامش	لتوما الخوري
١٨	نور النهار	لروز غريّب
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود
٢١	النجمتان	لروز غريّب
٢٢	ابن العروس	لجوزفين مسعود
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصر الله
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد
٢٥	النار الخفية	لروز غريّب
٢٦	الحاج بجبح	لرشاد دارغوث
٢٧	جوهرة الجواهر	لجوزفين مسعود
٢٨	دهليز الغرائب	لفكتور حكيم
٢٩	التجاريب	لولي الدين يكن
٣٠	الصحائف السود	لولي الدين يكن
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	(٦ كتب للاطفال)
٣٢	كوب من العصير	لجوزفين مسعود
٣٣	المنجّم « عصفور »	لروز غريّب
٣٤	مغامرات أوليس	لتوما الخوري
٣٥	وطلع الصباح	لجوزفين مسعود
٣٦	اسطورة البحر	لانطوان مسعود
٣٧	الشريط المخملي	لجوزفين مسعود

الثمن [redacted]. ل

مقتبسة بتصرف عن « الاوذيسة » رائعة « هوميروس »

توما الخوري



رواية

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة الثانية ، بيروت — لبنان ، آذار (مارس) ١٩٨٠

حِصَان "طروَادة"

كان حصاراً مَديداً دام تسْعاً من السنين الطّوالِ ، الطّوال ...

وكان قتالاً مَريراً صُرع فيه خيرةُ الأبطال من كِلا الطّرَفَين المتحاربَين : الآخيِّين القادمين من أطراف « اليونان » وجُزُرِها ، والطرواديِّين الذين ضرب الآخيُّون على مدينتهم « طروادة » حصاراً رهيباً من البحر والبرّ .

ومع أنَّ الطرواديِّين هم الذين حُوصِروا ، وهم الذين هُوجموا في عُقْر دُورِهم وديارِهم ، إلاّ أنّهم لم يستسلموا ولم يَذلّوا . وما كانت مدينتُهم العُظمى « طروادة » لتُدَكَّ حصونُها ومَعابِدُها

لولا خيانةُ « هلينوس » ، ابنِ مَليكِها « بريام » فقد شاء « هلينوس » أن يتزوّج « هيلانة » ، أرملةَ أخيه « باريس » ، غيرَ أنَّ أباه « بريام » زوّجها بابنه الآخَر « ديوفوب » . فنهشت الغَيرةُ قلب « هلينوس » ، وبارحَ قصرَ والده على مَضَض معتزلاً في الجبال ، حاملاً معه سرَّ المدينة إلى « أوليس » ، زعيمِ الآخيّين .

★

بنى الآخيُّون ، عملاً بمَشُورة « هلينوس » ، حصاناً خشبيًّا كالحِصْن ضخامةً وارتفاعاً . واختبأ في جَوفه نُخْبةٌ من أبطال الآخيّين مدجَّجين بكامل أسلحتهم . ثم ترك الآخيُّون الحصانَ ، بمَن في داخله ، خارج أسوار « طروادة » ، مع « سينون » ابنِ عمّ « أوليس » ، وتظاهروا بالانسحاب من ساح المعركة ، ويَمَّموا ، خُلْسةً ، شَطْرَ جزيرة قريبة تُدعى « تينيدوس » حيث أرسَوا سُفنَهم وكَمَنوا . في تلك الأثناء شاهدَ الطرواديُّون الحصانَ

و« سينون » ، وراقبوا انسحابَ الآخيّين ، فخرج منهم فريقٌ يَستَطْلعون الخبرَ . ولمّا رآهم « سينون » تظاهَرَ بالهرب من أمامهم ، فلحِقوا به ، وقبَضوا عليه ، وقادوه إلى الملك « بريام » . ولمّا مَثُلَ « سينون » بين يدَي الملكِ لفَّقَ قصّةً مُؤدّاها أنّ الآخيّين الظالمين أرادوا أن يقدّموه ذَبيحةً للآلهة ، فهرب ، وأنّه ، انتقاماً منهم ، سيفضحُ سرَّ الحصان الخشبيّ الذي تركوه خارج المدينة . « إنّ هذا الحصانَ ، قال سينون ، بناه الآخيُّون ليتّخذوه رمزاً للربّة أثينا ويَعبُدوه حتى تهَبَهم النَّصرَ . وقد جعلوا ارتفاعَه يفوقُ ارتفاعَ أسوار مدينتكم ليتعذّرَ عليكم إدخالُه إليها ، ولئلاّ تستأثروا ، بالتالي ، بعبادته ، فيكون النصرُ حليفكم دونما رَيب » .

ولدى سَماع هذه الأقوالِ حدَثَ جِدالٌ بين الطرواديّين : بعضُهم اقترحَ أن يُشَكَّ الحصانُ الأجوفُ بالرماح الحامية لاختراقه ومعرفةِ سرّه ؛

وارتأى آخرونَ أن يُدَحْرَجَ على الصخور ويُسْحَبَ إلى القِمَّة ؛ وفضَّلَ فريقٌ ثالث أن يقدَّمَ للآلهة . وهنا تدخَّلَ الكاهنُ الأكبرُ فاتَّهمَ « سينون » بالكَذب والِخداع ، وحذَّرَ الطرواديِّين من إدخال الحصان الخشبيِّ إلى مدينتهم لأنَّه سيكون وَبالاً عليها وعليهم . ثم هبَّ وأولادَه إلى الساحل لإقامة الصلاة . وفيما هم كذلك خرجت من البحر حيَّتان هائلتان خنقتا الكاهنَ وأولادَه جميعاً . أمّا الطرواديُّون الذين رأوا المَشْهدَ الفظيعَ فقد ظنُّوا أنَّ الآلهةَ قد اقتصَّت من الكاهن لأنَّه لم يأخذ بنصيحة « سينون » بل اتَّهمه بالكذب والتَّدجيل . فهبَّت جموعُ الطرواديِّين هبَّةً واحدة ، وأحدثوا في سُور المدينة حُفرةً ، وأدخلوا الحصانَ الخشبيَّ إليها .

وفي الليل ، وبينا أهلُ المدينة يسترسلون في الشُّرب واللَّهْو والُمجون ، تسلَّل « سينون » خِفيةً إلى الحصان الخشبيِّ وأخرج منه الأبطال الكامنين في

داخله . ثم ارتقى هَضْبةً ، ورفع شُعلةً في الهواء إشارةً إلى سُفن الآخيِّين المتربِّصةِ في جزيرة « تينيدوس » بالزحف على « طروادة » . فزحفت السفن سريعةً تحت جُنْح الليل وأنزلت الجنودَ على الساحل ، فدخل بعضُهم المدينةَ من الثُّغْرة التي أُحدثت في السور لإدخال الحصان ، ودخل الباقون من الأبواب التي فتحها لهم رفقاؤهم من الداخل . وهكذا اقتحم الآخيُّون المدينة ، آخذين الطرواديِّين على حين غَفْلةٍ ، وأعملوا في رِقابهم السيفَ ، وفي مدينتهم الدَّمارَ !

★

غيرَ أنَّ انتصار الآخيِّين هذا أعْقَبَه عِقابٌ لهم وَخيمٌ ، لأنَّهم دمَّروا هياكل « طروادة » المقدَّسةَ ، ودنَّسوا حُرُماتِها ، وارتكبوا من الفَحْشاءِ والجرائم الوحشيَّة ما يَنْدى له الجبينُ خجَلاً . ولكنَّ أعظمَ المِحنِ وأقساها كانت من نصيب « أوليس » ورجالهِ في طريق عودتهم من « طروادة » إلى وطنهم في جزيرة « إيثاكا » الصخريَّةِ ، مَوْطِنِ الرجال الصَّناديد .

جَـزيرة "أسمَارُوسْ"

غادر « أوليس » ورجالُه « طروادة » باثنتَي عشْرَةَ سفينةً محمَّلةً بما سلبوا من ثروات المدينة ، ومـا سبَـوا من نسائها ، بعد أن فتكوا برجالهـا ودمَّـروا هياكلها تدميراً . وكانت وُجهتهم أرضَ الوطن « إيثاكا » ، غـير أنَّ الرياحَ ساقت سفنهم شرقاً إلى « أسماروس » الواقعةِ على ساحل « ثراقيا » . وهنك أيضاً أعملَ رجالهُ السيفَ برقاب السكّان ، وتقاسموا الأسلابَ والسَّبايا . وعبثاً نصحهم « أوليس » بمغادرة المكان على عَجَـلةٍ ، فلم يأبهوا لأقواله ، وقـد انتشَـوا بخمرة الانتصار . وفي فجر اليوم التالي أغار عليهم سكّـانُ البلاد بأعـداد ضخمة ، مُشاةً وعلى عربات ، وقد استنجدوا بجيرانٍ لهم من جنسهم ،

فقتلوا من رجال « أوليس » ، رغم بسالتهم ومقاومتهم الضارية ، ستَّـةً من أهـل كلِّ سفينة . وباعجوبة نجا الباقون .

وكانت تلك أُولى المِحَن التي نُكب بهـا « أوليس » .

في بَلَد أكَلَة اللّوتس

ثم عادوا وأبحروا كسِيري القلوب من جهـةٍ لخسارة رُفقائهم ، وفَرحين من جهـةٍ أخرى لنجاة الباقين . غير أنّ الإلهَ « زوس » ، جامعَ السحب ، أثار على سفنهم ريحاً شماليّـةً عاتية ، وسَرْبلَ الأرضَ والبحرَ معاً بغيوم قاتمـة ، وأهبط عليهم الليلَ من السماء ؛ فتاهت سفنُهم في عُرض البحر ، وتمزّقت أشرعتُهـــا ، لعَنف الرياح ، شرَّ تمزُّق . وظلّـوا هكذا ليلتين ونهارين ، ضائعِين في الِخضَمّ ، وقـد أخذ منهم الخوفُ والتعب كلَّ مَأخذ .

ولمّا انبثق الفجرُ عن اليوم الثـالث ، وأوشك « أوليس » أن يدركَ وطنَـه « ايثاكا » دونما أيّـــة

خسارة تُذكر ، إذا الأمواج تجنح بسفنه ، يساعدها التيّـار ورياحُ الشمال ، فتبدِّل وُجهةَ سيرهـــا ، وتقذفُها بعيداً عن خطّـها . فظلّـوا طوالَ تسعـة أيّام يكافحون الأمواجَ والرياح حتى بلغوا الشاطىء في اليوم العاشر ، فارَسوا في بلدِ أكَلَـة اللوتس .

أرسل « أوليس » ثلاثـةً من رجاله ليستكشفوا عن طبيعة البلاد ويتعرّفوا إلى أهلها . فاستقبلهم السكّانُ بالتّرْحاب ، لأنّهم كانوا قوماً طيّـبين . ولكي يبرهنوا لهم عن حُسن نيّـاتهم قدّموا لهم شيئـاً من طعامهم الذي يقتصر على ثمار اللوتس ؛ وما إن تذوّقوا طعمَـها العَسَـليَّ حتى استطابوهـــا ، ونسُـوا المهمّة التي كُلِّـفوا بها ، وبقوا هناك . فاضطُرَّ « أوليس » أن يَنزِل إليهم مع بعض رجاله الباقين ، واقتادهم بالقوّة إلى سفنهم وهم يبكون كالأطفال ، وحذّر الجميع من تذوُّق اللوتس ، لأنّ آكله يفقد ذاكرته .

في أرض العملاق وحيد العين

وأبحروا من جديد، تشقُّ سفنُهم صفحةَ البحر الرَّماديّ المزبد، حتى بلغوا أرض العمالقة وحيدي العين. وهؤلاء العمالقة قومٌ لا دِينَ لهم، ولا رحمةَ في قلوبهم، لا يفلحون ولا يزرعون، ومع ذلك فأرضهم المِعْطاءُ تُنبتُ لهم كلَّ شيء، كالقمح، والشعير، والكروم. وهم يقطنون قِممَ الجبال في كهوف عميقة، ولهم سُنَنُهم وقوانينُهم الخاصَّة إذ انّهم لا يكترثون للآلهة.

وجنحوا إلى جزيرة قريبة من أرض العمالقة، يغطّيها العَوْسجُ والعلّيق، فيها قُطعانٌ لا تُحصى من الماعز البريّ، وتمتدُّ على سواحلها مَراعٍ سُنْدُسيّةٌ، وحقولُ قمحٍ، وكرومٌ ذاتُ خصب أبديّ.

فاقتربوا منها حتى صاروا بإزاء ميناءٍ طبيعيّ أمين تكتنفه الصخورُ من كلّ جانب، وينصبُّ فيه جَدْولٌ رَقْراقٌ تَنبت على مجاريه أشجارُ الحَوْر والصَّفْصاف. دخل «أوليس» ورجالُه هذا الميناءَ تحت جِنح الليل، وباتوا فيه ليلتهم. وفي الصباح الباكر قاموا بجولة في الجزيرة، فأُخذوا بجمال مناظرها كلَّ مأخذ وأثارت الحُوريّات، بنات «زوس»، قطعانَ الماعز الجبليَّة من مَراقدها، فاصطادوا منها ما يفي حاجتَهم ويزيد، فكان من نصيب كلٍّ واحد منهم تسعُ عَنزات، وأُعطي «أوليس» عَشْراً. وظلّوا حتى المساء في عيدٍ، يشربون ويأكلون ويَسْمُرون. وكانت تتناهى إليهم من الأرض القريبة قُبالتَهم أصواتُ العمالقة وحيدي العين، وثُغاءُ مَعْزِهم ونِعاجهم. ولمّا أقبل الليلُ استسلموا إلى نومٍ هادىء هنيء، يُهدهد أحلامَهم تكسُّرُ الموج على الساحل.

وفي صباح اليوم التالي خرج «أوليس» بسفينته،

في زُمرةٍ من رجاله الأشدّاء ، نحو أرض العمالقة ، ليستجليَ أمرَهم ويمتحنَ ضيافتهم . ولمّا صاروا بإزائها شاهدوا على تلٍّ يشرف على البحر كَهْفاً عالياً تغطّيه أشجارُ الغار ، وحولَه ترعى قطعانُ الماشية من ماعز ونعاج بأعداد غفيرة . وكان هنالك شخصٌ ذو حجم هائل يرعى ماعزه بعيداً عن قومه . كان هذا المخلوقُ عملاقاً مخيفاً ، يشبه ساريةً من سواري السفن ، أو قِمّةَ جبل مشجرةً بدت معزولةً عن سائر الجبال العالية حولَه .

فاهاب « أوليس » برفقائه أن يبقَوا قربَ السفينة لحراستها ، وانطلق نحو أرض العمالقة في اثني عَشَرَ من رجاله الأقوياء ، وأخذوا معهم قِرْبةً من جِلد المعز ملأى بصِنفٍ من النبيذ الأسود الحُلْو كان قد أهداه إيّاه كاهنٌ في جزيرة « أسماروس » .

أمعنوا في التّصعيد نحو الكهف ، فادركوه بسرعة . لكنّهم لم يعثروا على العملاق . وكم كانت

دهشتهم عظيمةً حين وجدوا كهفه يَحْفِل بكلٍّ ما لذَّ وطاب : فالسِّلالُ مليئة بالأجبان ، والحَظائرُ تعجُّ بالحُمْلان والجِداء ، والآنيةُ تطفح بالألبان . وعبثاً حاول رجال « أوليس » إقناعَه بالتزوُّد بكميّة من تلك المؤن والإسراعِ نحو السفينة ، لأنّه كان يريد رؤيةَ العملاق .

أضرموا النار ، وشَووا اللحم ، والتهموا منه ومن الأجبان ما طاب لهم أن يلتهموا ، حتى أقبل العملاق وحيد العين يتقدَّمه قطيعُه . فالقى عن كاهله حِمْلاً كبيراً من الحطب اليابس أحدثَ لدى سقوطه على الأرض ضجّةً عظيمة في أرجاء الكهف . وبعد أن أدخل قطيعَه الزريبةَ سدَّ فُوَّهةَ المغارة بصخر هائل لا يستطيع زحزحتَه أحدٌ . ثم طَفِق يحلب نعاجه وعنزاتِه الثاغية . وبعد أن خثّر قسماً من ألبانه لإعداد الأجبان ، وسكَبَ القسمَ الآخر في آنية ليشربها وقتَ العشاء ، سارع إلى إضرام النار ، فرأى « أوليس » وصَحْبَه . فسألهم :

- أيُّها الأغرابُ ، من أنتم ؟ ومن أين أتيتم ؟

فأجابه « أوليس » ، المذهولُ بقامتـه الوحشيّة وصوته الُمجلجِل :

- نحن قومٌ آخيّون ، كنّا عائدين من « طروادة » إلى وطننا ، ولكنّ الرياحَ الهوجاءَ ضلّلت طريقَنا وساقتنا إلى هذه الأرض ... وها نحن الآن نرتمي على قدميك ، ونتوسّل إليك أن تُحسن استقبالَ ضيوفك ، فتُغدقَ عليهم الهدايا حسبما تقضي واجباتُ الضيافة وتذكّرْ أيُّها السيِّدُ العظيمُ أنّ الإله « زوس » هو إله الضيافة ورفيقُ الغرباء .

فأجابه العملاق على الفور :

- إنّك لَغِرٌّ ساذج أيُّها الغريب ، إذا كنت تعتقد بأنّنا نقيم وزناً للآلهة ، أو نحفل بهم ؛ فنحن أقوى منهم بكثير . ولكنْ هيّا أخبرْني : أين أرسيتَ سفينتك المتينة ، أفي آخر الجزيرة ، أم قريباً من هنا ؟ أريد أن أعرف ذلك .

غير أنّ حيلة العملاق لم تنطلِ على « أوليس » ، فأجابه مراوغاً :

- إنّ العواصف قد حطّمت سفينتي على صخور ساحلكم ، فنجوت أنا ورفقائي هؤلاء من الموت بأعجوبة .

أمّا العملاق فلم يُجبه بشيء ، ولكنّه انحنى فجاةً ، وأمسك باثنين من رجاله ، وضرب بهما الأرضَ فسال دماغُهما على التراب ! ثم قطّع أوصالهما ، وأخذ يلتهمهما كما يلتهم الأسد فريستَه ، حتى انّه لم يُبقِ أثراً منهما !

وطفق أصحاب « أوليس » يبكون . وبعد أن حشا العملاق بطنه العريض باللحم الآدميّ ، وبالحليب النقيّ ، تمدّد على أرض الحظيرة وسط نعاجه ، واستسلم لنوم عميق .

همَّ « أوليس » بأن يستلَّ سيفه البتّار ويُغمدَه في صدره ، ولكنّ فكرة أخرى أثنَتْه عن عزمه : خاف أن لا يستطيعَ ورفقاءه زحزحةَ الصخرة

الكبيرة التي تسدّ فوهة المغارة، بعد موت العملاق، فيُقضى عليهم جميعاً في الداخل. وظلّوا طول الليل خائفين، واجفين، يندبون حظّهم العاثر.

ولمّا انبثق الفجر نهض وحيدُ العين، وأضرم ناراً كبيرة، وحلب نعاجه. ثم أمسك باثنين من رجال «أوليس» والتهمهما، ثم رفع الصخرة التي تسدّ باب المغارة، وأخرج قطيعه، وأعاد الصخرة ثانيةً الى مكانها. وراح يسوق قطيعه نحو الجبال على صوت صفّارته القويّ. أمّا «أوليس» فاخذ يتأمّل بمصيره ومصير أصحابه، ويفكّر بطريقة للانتقام من هذا المخلوق المتوحّش.

كان العملاق قد جلب الى كهفه جِذعَ زيتون أخضرَ ليجعلَ منه هراوةً. وكان هذا الجذع أشبهَ بسارية المركب لضخامته. فاقتطع «أوليس» منه خشبةً بطول مترين برى أحد طرفَيها وقسّاه على النار. ثم أخفاها بعنايةٍ، واختار بالقُرعة أربعة من رفقائه اتّفق معهم أن يفقأوا عين العملاق برأس

تلك الحَربة الخشبيّة، حين يستسلم للنوم.

وفي المساء عاد العملاق وزرب قطيعه، وسدَّ باب كهفه بذلك الصخر، ثم أخذ يحلب نعاجه وماعزه الواحدة تلو الأخرى. ولمّا أتمَّ عمله هذا بسرعته المعهودة تعشّى، كالسابق، رجلين آخرين من رجال «أوليس». وبينما هو ينسحب لينامَ اقترب منه «أوليس» وقدّم له الخمر السوداء وقال له:

– إشربْ هذا أيُّها العملاق، بعد لحم الإنسان الذي التهمتَ، لتُدركَ أيّ شراب فاخر كانت تخبّىء لك سفينتنا. إنّي أقدّمها لك كهديّة لتعفوَ عنّي حتى أعودَ إلى وطني.

أخذ العملاق زقَّ الخمر وشربه دفعةً واحدة. ولمّا استقرّ الشرابُ القويُّ في جوفه اجتاحه سرورٌ طاغٍ، وطلب المزيدَ قائلاً:

– ما اسمُك أيُّها الغريبُ؟ إنّي مُزمعٌ أن أهَبَك هديّةً تسرُّك... صحيحٌ أنّ خمرتنا نحن

فاخرةٌ ، غيرَ أنّ هذه تفوقها جودةً .

وملأ له « أوليس » زِقّاً ثانيـاً فثالثاً من تلك الخمرة ذات البريق الناريّ ، والعملاقُ يَعُلُّ منها ولا يرتوي ، حتى أخذت منه النَّشوةُ أخيراً وانتظمت كيانَه كلَّه . فخاطبه « أوليس » بكلماته المعسولة :

ـ تسألني عن اسمي أيُّها العملاق ؟ سأبوح لك به ، لكن لا تَنْسَ هديَّتي التي وعدتني بها . إنّني أدعى « لا أحد » . هكذا يناديني أبي وأمّي وأصحابي .

فأجابه العملاق :

ـ يا « لا أحد » ، ستكون آخر من ألتهمُ من بين رفقائك . هذي هديَّتي لك !

وقهقه ، ثم تمدّد على الأرض مستلقياً على ظهره ، وقد انتظمه نومٌ سريع من السُّكر .

فما كان من « أوليس » إلاّ أن هرع إلى وتده ، ودفعه في قلب الرماد المجمّر حتى إذا حمي وصار

كالنار ، طلب « أوليس » من رفقائه الأربعة أن يسارعوا لمساعدته . ولمّا صار رأس الحربة الأخضر على وشك الاشتعال ، سحبوه من النار ، وأدنوه من مقلة العملاق وغرزوه بقوّة في عينه الواحدة . ثم راح « أوليس » يدفعه أعمق فأعمق بكلّ ما أعطي من قوّة ، ويشدّ عليه ويديره كاللولب في محجره ، فانبجس الدم حول رأس الحربة المحروق . وأعول العملاق إعوالاً مخيفاً رجّعته أرجاء المغارة ، وترامى إلى الخارج ، فتراجع « أوليس » ورفقاؤه عنه مهرولين مذعورين . نهض المارد وقد جُنّ جنونه ، فانتزع الوتدَ المدمّى من عينه ، ورماه جانباً ، وأخذ ينادي بصوته المجلجل أبناء جنسه القاطنين المغاور والكهوف المجاورة بين القمم التي تصفعها الرياح ؛ فهُرِعُوا إليه ، وتحلّقوا حول فوّهة غاره يسألونه عن سبب توجُّعه وتفجُّعه قائلين :

ـ أيّ ألم تعاني ؟ ولماذا جأرت في الليل الخالد بهذه الصيحات التي أيقظَتْنا ؟

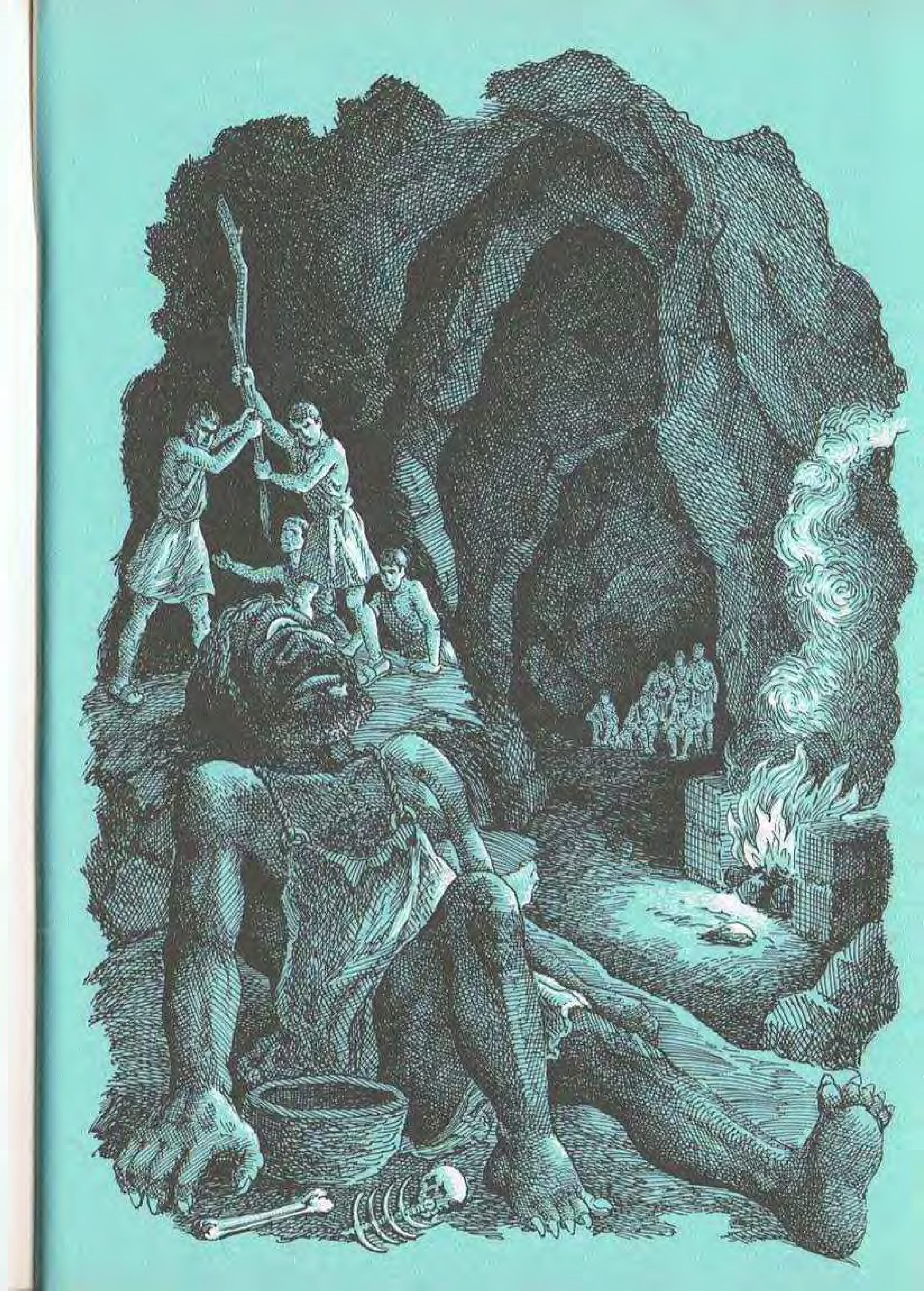
ومن أعماق الغار أجابهم العملاقُ الجريح :

ـ تسألونني عمّا بي ؟ إنّ « لا أحد » هو الذي يغتالني ، وبالحيلة ، ومن غير أدنى قتال .

فردّ عليه أصحابه قائلين :

ـ إذا كان « لا أحد » يؤذيك ، وإذا كنت أنت وحدَك تتفجّع وتتوجّع ، فهذا ، ولا ريبَ ، مرضٌ قد بُليتَ به .

ثم انسحبوا راجعين من المكان ، بينما أخذ «أوليس» يضحك في سرّه لحيلته الناجحة . أمّا العملاق فأخذ يتلمّس طريقَه بيدَيه إلى باب المغارة ، فرفع الصخر الذي يسدّه ، وقعد في المدخل وذراعاه ممدودتان أمامه للإمساك بكلِّ مَن يحاول الخروجَ بنعاجه . وكان « أوليس » في تلك الأثناءِ يفكّر بطريقةٍ أسلَمَ تمهّد سبل النجاة له ولرفقائه . وراح ينسج في فكره الخصب كلَّ أنواع الحيل ، حتى اهتدى إلى واحدة وجدها الفُضْلى .



كانت كباش العملاق المعلوفةُ جزيلةَ الشحم واللحم وجميلة جداً ، ولهـــا صوفٌ كثيف فضفاض مجعّد كسحابة . فما كان من « أوليس » إلاّ أن جمعهـــا بهدوء ، وربطهـا ثلاثةً ثلاثةً بقضبان من الخيزران مجدولةٍ جدلاً مُحكماً ، بحيث يستطيع أن يتشبّث كلُّ واحد من رجاله ببطن الكبش الذي في الوسط ، من غير أن يفطن له العملاقُ وهو يتلمّس بيديه الكبشين من الجانبين . أمّا « أوليس » فقد اختار لنفسه كبيرَ الكِباش ليتعلّقَ ببطنه الغزير الصوف .

ولمّا بَزَغَ الفجرُ ذو الأنامل الورديّة أخرج العملاق كباشَه ليسوقَها إلى المرعى فمرّ أمامـــه القطيعُ مقطوراً على النحو الذي أعدّه « أوليس » ، والعملاق الواقف في باب الكهف يتحسّس من يمينِ ويسار كباشَه ، الواحدَ تلو الآخر ، من غـــير أن يفطن إلى رجال « أوليس» المختبئين تحت بطون الكباش التي في الوسط . حتى إذا أقبل الكبشُ الأخير الذي يخبّىء « أوليس » ، وهمّ بالخروج مثقلاً بحمله وصوفه

الجزيل ، أوقفـه العملاقُ وهو يتحسّسه ، وخاطبه بقوله :

ـ يا كبشي الحلو ! لماذا أنت في مؤخّرة القطيع ، ومن عادتك أن تتقدّمه دائماً إلى المراعي الُخضْر ، ومياه الأنهر ، وإلى الغار أثناء أوْبَتِك في المساء ؟ أحزناً على عين سيّدك التي سَمَلها رجلٌ أثيم يدعى « لا أحد » ، بعـد أن أسكرني بخمرته الحلوة وسلب عقلي ؟ ليتك يا كبشي الرائع أعطيتَ النُّطْقَ لتخبرني إلى أين هرب من غضبي ، إذن لكنتُ ضربت رأسَه في الأرض وبدّدت نخاعـــه في كلّ مكان ، فيرتاح قلبي .

قال العملاق هذا ودفع بالكبش أمامه إلى الخارج وقد تحرّر « أوليس » من كبشه ، ثم حرّر رفقاءه ، فساقوا جميعهم القطيعَ كلَّه حتى سفنهم . وكم كانت فرحةُ أصحابهم عظيمةً لمّا شاهدوهم عائدين ، وكم كان نواحهم مُفْجعاً على موت الآخرين. فانتهرهم « أوليس » بأن يكفّوا عن البكاء ، ويسارعوا بنقل أكبر عدد من

تلك الخراف إلى السفن .

وراحوا من جديد يجذّفون في بحر مزبد . وقبل أن يبتعدوا عن المكان أطلق « أوليس » نداءً ليسمعَ العملاق كلماتِه الساخرة :

ـ وحيد العين ، يا وحش ، يا آكل البشر ، هذا هو قِصاص مَن لا يحترم واجبات الضيافة .

فاقتلع العملاق ، من فرط غيظه ، قِمّة جبل ، ورشق « أوليس » ورفقاءه بها ، فوقعت أمام مقدّمة سفينتهم وأحدثت موجاً عالياً كاد يعيدها إلى الشاطىء ، لو لم يسارع « أوليس » ويمسك بعمود طويل ويبعد السفينة عن الصخرة . وحثّ رفقاءه على أن يجذّفوا بكلّ ما أُعطوا من قوّة .

فبدأوا بالتجذيف حتى بلغوا شاطىء الجزيرة المقابلة ، حيث كان أصحابهم بانتظارهم . وهناك طفقوا يقتسمون بالتساوي الخرافَ التي سلبوها من العملاق ، فكان من نصيب « أوليس » الكبش العظيم

الذي أنقذه ، فقدّمه ذبيحةً لإله السُّحب الدَّكْناء .

وهكذا ظلّ « أوليس » ورجالُه طوالَ النهار في عيد ، يأكلون اللحوم ويشربون الخمور . ولمّا آذنت الشمسُ المغيبَ ، وبدأت العَتَمة تطبق على المكان ، ناموا على صوتِ تكسُّر الموج على الساحل .

سيّد الرّياح

وفي الصباح عادوا فأبحروا . وراحت مجاذيفهم تضرب صفحة اليمّ الرماديّةَ المزبدة . وبعد مسيرة طويلة بلغوا الجزيرة التي يتحلّقها سورٌ من برونز منيع ، حيث يعيش سيّدُ الرياح مع أبنائه وبناته الاثنَي عشَرَ في بحبوحة من رَغد العيش لا نفادَ لها . فاستقبلهم مليكُ الجزيرة على الرُّحب والسَّعة، واستضافهم طوالَ شهر كامل ظلّ خلاله « أوليس » يروي له أخبار فتوحاته . ولمّا شاء « أوليس » ورفقاؤه الإبحارَ هيّأ لهم « إيول » الملك جميع أسباب الراحة لرحلتهم الطويلة ، فاهدى « أوليس » قِرْبَةً من جلد حبس فيها الرياحَ الصاخبةَ ، وأحكم رَبْطَها بسِلكٍ من الفضّة ليستحيلَ عليها الخروجُ ما عدا

ريحاً خفيفةً يَسَّرها لهم لتسوق سفينة « أوليس » بأمان . وهكذا انطلقت سفنُ « أوليس » تمخر عباب اليمّ طوال تسعة أيّامٍ . وفي اليوم العاشر لاحت لهم أرضُ الوطن ، ونيران الرعيان تتصاعد عليها من بعيد . فإذا « أوليس » ، الذي كانت دفّةُ القيادة بيده ، يستولي عليه ، من فرط التعب ، نومٌ مفاجىء . عند ذلك قام حوار بين رفقائه حول المغانم التي استأثر بها دونهم ، فقال أحدهم إنّ سيّدهم حيثما حلّ وارتحل يحظى وحدَه بحبّ الناس وتقديرهم ، وها هو يغنم من « طروادة » كميّةً من الأشياء النفيسة ، بينما هم ، الذين قاسوا معه أهوالَ الحرب ومشاقّ الطريق ، يعودون الى الوطن وليس في أيديهم شيء . وزاد قائلاً : « وها هو ايول قد أغدق عليه أخيراً الهدايا الكثيرة ، فهلمّوا لنرى كم من الذهب والفضّة أودع القربة الجلديّة التي أهداه إيّاها » .

وهبطوا جميعُهم الى قعر السفينة ، وفتحوا القربة ليروا ما فيها ، فانطلقت منها الرياحُ الحبيسة ،

مجنونةً عاصفةً ، وطوّحت بسفنهم في خضمّ البحر اللجّيّ ، وساقتها بعيداً عن أرض الوطن . فاستفاق « أوليس » على صوت العواصف وصخب الأمواج . ولمّا وقف على حقيقة الأمر فكّر في أن يرتمي في أحضان الموج ويهلكَ ليرتاحَ من عَناء هذا التيه في رحاب البحر . ثم عاد فثابَ إلى رشده ، وآثر البقاء حيث هو في قاع المركب ، فتلفّع بردائه ، واستسلم لقدَره المحتوم . فساقته الرياح وأعادته ثانية الى جزيرة « ايول » بين صخب الرفقاء وشكواهم . فانطلق « أوليس » بصحبة اثنين منهم إلى الملك يشكو له حاله ، ويطلب عونه من جديد . فنهرهم « ايول » قائلاً :

- إليكم عنّي يا حثالة الناس ! هيّا ، بارحوا جزيرتي بسرعة لأنّه لا يليق بي أن أساعد رجالاً مثلكم . إليكم عنّي لأنّكم قوم ملعونون !

وهكذا طَرد « ايول » « أوليس » وصَحْبَه من جزيرته .

في جَزيرة "سيرسيه"

وبعد مسيرة طويلة وصل « أوليس » وبحّارته إلى جزيرة تقطن فيها ابنةُ الشمس « سيرسيه » ، ذاتُ الجدائل البهيّة ، والصوتِ الآدميّ المُخيف . فدخلوا مرفأها الأمين ، ونزَلوا إلى الساحل واستراحوا عليه طوال يومين كاملين . وفي صباح اليوم الثالث خرج « أوليس » مستطلعاً ، يحمل سيفه وحربته ، وارتقى تلّة صخريّة ، فابصر من أعلاها ، في الأرض الواسعة حوله ، منزلاً شاهقاً يتصاعد من سطحه الدخانُ . كان ذلك قصر « سيرسيه » . وفكّر « أوليس » في أن يعود إلى رفقائه أوّلاً ليقدّم لهم طعام الغداء ثم يكلّفَ بعضَهم بفحص المنطقة لمعرفة ساكنيها . ولكنّه ما كاد يقترب من سفينته حتى نجم أمامه

وَعْلٌ بقرنين كبيرين . كان الوعل ينحدر من الجبل لِيَرِدَ ماءَ النهر ، لأنّ وطأة القيظ كانت قد بدأت تشتدّ . فسدّد « أوليس » رمحه إلى ظهره فخرقه ، وألقاه صريعاً على الأرض . ثم حمله إلى سفينته السوداء ، فاقام رفقاؤه طوال ذلك النهار يأكلون لحمه اللذيذ . وفي صباح اليومِ التالي قسم « أوليس » رجاله فرقتين ، تتألّف كلٌّ واحدة من اثنين وعشرين رجلاً ، ترأس هو إحداهما ، وترأس الثانية « يوريلوكوس » الباسل الذي سار بفرقته إلى القصر . كان قصر « سيرسيه » ، المبنيُّ من حجارة صقيلة ، مكشوفاً للأنظار ، وواقعاً في حضن وادٍ مُخْضوضر . وكانت تجثم حوله ذئابٌ وأسود سحرتها « سيرسيه » وأقامتها حرَساً لها . ولذلك لم تهجم تلك الحيواناتُ المفترسة على « يوريلوكوس » وصحبه حينما دَنوا منها ، وإنّما راحت تلتفّ حولهم تُنَزْنِزُ أذنابَها الطويلة مثلما تفعل الكلابُ لدى عودة صاحبها . وتناهى إليهم صوتُ الساحرة من الداخل ، وكانت تغنّي وهي تحوك على نَوْلِها نسيجاً . فواتت الجرأة « يوليتيس » ،

أعزُّ أصدقاء « أوليس » ، فقال :

– أرى هناك ، أيُّها الأصدقاء ، مَن ينسج نسيجاً عجيباً ، ويحرِّك الجمادَ بغنائه . ترى ، من تكون هذه المرأة ؟

فنادَوها . وخرجت « سيرسيه » في الحال ، وفتحت لهم باب قصرها ودعتهم إلى الدخول . فدخلوا جميعُهم مبهورين بجمالها ، باستثناء « يوريلوكوس » الذي بقي وحدَه في الخارج ، وقد تنسَّم شرّاً مستطيراً .

وبعدما اقتعد الرجال المقاعدَ والأرائكَ الوثيرة ، قدَّمت لهم « سيرسيه » كؤوس شراب هو مزيج من مسحوق جُبْنٍ وشَعير وعسل أخضرَ ممزوج بخمرة ، وقد أضافت إليه الساحرةُ عقاقيرَ من صنعها تُفقد شاربَ هذا الإكسير ذاكرتَه . ولمّا علّوا منه ما علّوا مَسَّتهم « سيرسيه » بعصاها السحريّة ، ومسختهم جميعَهم على الفور خنازير ، وساقتهم إلى حظيرةٍ حيث احتجزتهم . عقولُهم وحدَها بقيت

آدميَّة ، ولذلك كنتَ تراهم يبكون ويندبون حظَّهم ، بينما « سيرسيه » تُلقي أمامهم طعام الخنازير العاديَّ ، كالخرّوب والبلّوط واللّفت والجزر وما شابه .

أمّا « يوريلوكوس » فعاد أدراجه إلى السفينة ليخبرَ ، دامعاً ، ما جرى لرفقائه ، وكيف دخلوا القصر ولم يخرجوا منه . فطلب إليه « أوليس » أن يسير برفقته إلى القصر . غير أنّ « يوريلوكوس » توسّل إليه ، وهو يمسك بركبتيه ، ألاّ يقومَ بهذه المغامرة ، لأنّه لن يَرْجِعَ منها سالماً . أمّا « أوليس » فقد أصرَّ على الذهاب ، وتقلّد سيفه البرونزيَّ ذا المسامير الفضيّة ، وأخذ قوسه وسهامه ، وابتعد عن السفينة . وكاد يبلغُ قصر الساحرة حين نَجَم أمامه « هيرمس » ، رسولُ الآلهة ، وصولجانُه الذهبيّ بيده ، وهو بزيّ فتى في ريعان الشباب ، وخاطبه قائلاً :

ـ إلى أين أنت ذاهبٌ أيّها التعيس « أوليس » ؟ إنّ أصحابك الآن محبوسون في حظائر « سيرسيه » ، ولن

تستطيعَ إنقاذَهم لأنّها مسختهم خنازير . ولكي لا تلاقي مصيرَهم البائس إليك بهذه العُشْبة التي تردُّ عنك تلك النهايةَ المشؤومة . وها انّي أطلعك على كلِّ حيل الساحرة : ستهيّىء لك أوّلَ الأمر شراباً خاصّاً ، وترمي في كأسك بعضاً من عقاقيرها السامّة . غير أنّ العُشبة التي زوّدْتُك بها ستُبطل مفعولَ إكسيرها السحريّ . وحين تحاول أن تمسَّك بعصاها ، سُلَّ سيفَك وتظاهرْ بانّك تهمُّ بقتلها ، عندئذٍ ستلين وتعرض عليك صداقتَها . لا تردَّ طلبَها إذا كنتَ تريد إنقاذَ رفقائك ، لأنّها إلهة على كلِّ حال ، ولكن استحلفها بالاّ توقعَ بك أيّ شرّ .

وهكذا زوّد « هيرمس » « أوليس » بتلك العُشبة واختفى عن الأنظار . فسار « أوليس » نحو قصر « سيرسيه » ، تتجاذبه أفكارٌ شتّى . ولمّا أدركه ناداها وهو واقفٌ في الرُّواق . ففتحت له بابَ القصر ، ودعته إلى الدخول . فتبعها « أوليس » داميَ الفؤاد ، فأجلسته الساحرةُ على مَقْعد ذي

مساميرَ فضّيةٍ ، مرصَّعٍ بالحجارة الكريمة ، وقدَّمت له الإكسير بعد أن سكبت فيه عقاقيرها ، وهي تندب ، سلفاً ، حظَّه العاثر ، في ذات نفسِها . فشرب « أوليس » الكاس حتى الثُّمالة ، ولم يُصَبْ بأذى . عندئذ ضربته بعصاها السحريَّة ، وهي تقول :

ـ هلمَّ الآن إلى حظيرة الخنازير ، واستَلْقِ إلى جانب أصحابك !

فسَلَّ « أوليس » حسامَه وهجم عليها متظاهراً بقتلها . فتراجعت عنه وهي تطلق صيحةَ ذعر ، وارتمت على قدَمي « أوليس » تتوسَّله منتحبةً :

ـ من أنت يا هذا ؟ ومن أيّ بلد أتيتَ ؟ كيف لم يسحرك هذا الشرابُ الذي قدَّمته لك ؟ ما من مخلوق سقيتُه إيّاه استطاع أن يقاوم مفعوله ! ألعلَّك « أوليس » ، صاحب الألف حيلة ، الذي تنبّأ لي « هيرمس » ، رسول الآلهة ، بقدومه إلى قصري بعد عودته من « طروادة » ؟ هيّا إذن ، أعدْ سيفك إلى غِمده ، ولنكن صديقَين !

فأجابها « أوليس » :

ـ كيف أصادقُك يا « سيرسيه » بعد أن مسختِ أصحابي خنازيرَ ؟ وها أنت الآن تستدرجينني إلى قصرك لتُوقعي بي . بأيَّة حال إنَّني أقبل صداقتك شريطةَ أن تعاهديني وتُقسمي لي بأنّك لن تَغدري بي ، ولن تنصبي لي فَخّاً من فِخاخك الكثيرة .

فأقسمت له « سيرسيه » بذلك . وتدليلاً على صداقتها ، وزيادةً في إكرامه ، قامت أربع حُوريّات ، هنّ وصيفاتُها ، بخدمته . فهيّأت له الواحدةُ فِراشاً وثيراً ألقت عليه غِطاءً أرجوانيّاً ؛ ووضعت الثانيةُ أمامه مائدةً من فضّة عليها سِلالٌ من ذهب ؛ وسكبت له الثالثة في كؤوس عسجديَّة خمرةً حلوة ذاتَ عِطْرٍ عَسَليّ ؛ وراحت الرابعةُ تسكب له الماءَ في قِدْرٍ كبيرة ليستحمّ . ثم وضعت « سيرسيه » أمامه مائدةً حفلت بضروب الأطعمة الفاخرة . غير أنّ « أوليس » لم يذقها ، وظلَّ مُطرقاً تتجاذبه الهمومُ والهواجس .

فقالت له « سيرسيه » :

ـ لماذا يا « أوليس » لا تمدّ يدك إلى الطعام ؟ أتخاف أن أنصب لك شَركاً آخر ؟ ألم أعاهدك عهداً صادقاً بأن أُخلص لك ؟

ـ آهٍ يا « سيرسيه » ! أيّ إنسان جدير بهذا الاسم يستطيع أن يأكل بينما صَحْبُه يرسفون في الذلّ ؟ إذا كنتِ حقاً تريدينني أن آكلَ ، حرّري رفقائي من عبوديّتهم ، ودعيني أكحّلْ عينيَّ برؤيتهم ثانيـة .

حينئذ انطلقت « سيرسيه » إلى الحظيرة ، ومسّت بعصاها السحريّة صَحْبَ « أوليس » الواحدَ تلو الآخر ، فاستحالوا من جديد أناساً ، ولكنْ أكثرَ فتوّةً وأوفرَ جمالاً . ولمّا شاهدوا « أوليس » أقبلوا عليه يعانقونه ويجهشون في البكاء . حتى « سيرسيه » التي لا ترحم ، تأثّرت للمشهد وقالت « لأوليس » :

ـ هيّا انطلقْ إلى سفينتك واسحبها إلى الشاطىء ، وخبّىء كنوزك في الكهوف المجاورة ، وتعالَ أنت وصحبك إلى قصري ، فجميعكم ستنزِلون عندي ضيوفاً على الرحب والسعة .

وهكذا حلّوا جميعُهم ضيوفاً لمدّة سنةٍ كاملة في قصر « سيرسيه » ، ينامون ويأكلون ويشربون ، حتى تذكّروا الوطنَ واشتاقوا إلى الرحيل ، فقالوا « لأوليس » على انفراد :

ـ أيُّها البائس ! لقد حان الوقتُ لكي تفكّرَ بوطنك وترى أهلك ، هذا إذا يَسَّرت لك الأقدارُ سُبُلَ العودة .

إقتنع « أوليس » بقول صحبه ، واختلى ذاتَ مساء « بسيرسيه » وتوسّل إليها قائلاً :

ـ لقد آنَ الأوانُ يا « سيرسيه » أن تبرّي بوعدك وتتركيني أعود الى وطني .

أجابت « سيرسيه » :

- ما من شيء يوقفك عندي رغماً عنك. ولكن يتعيَّن عليك أوّلاً أن تقوم بسفرة إلى عالَم الأموات لتخاطب هناك روح العرّاف الأعمى «ثيريسياس».

فتألّم «أوليس» كثيراً لما هو مُزمع أن يلاقي من صعاب، حتى انّه تمنّى أن يموت قبل أن تطلع عليه شمس الصباح. ثم ما لبث أن تمالك، وهو القويّ المعروف بصبره وأناته، وأجاب «سيرسيه»:

- ولكنْ كيف السبيلُ إلى دخول عالم الأموات يا «سيرسيه»؟ فما من أحد حتى الآن وصل إلى ذلك العالم على سفينة سوداء.

- لا عليكَ. لن يقودَك ملاّحٌ إلى هنالك. إرفع صاري السفينة، وانشر الأشرِعة البيض، واجلس أنت في مكانك. ريح الشّمال هي التي ستقود سفينتك. وحين تبلغ طرف الأوقيانوس ستجد أمامك ساحلاً مستوياً تمتدّ عليه غاباتٌ، وهي عبارة عن أشجار حَور وصفصاف سامقة سوداء عديمة الثمر... لترْسُ

ثَمَّةَ سفينتُك، وتوغَّلْ أنت في عالم الجحيم الرطب حيث مصبُّ الأنهار... هنالك تجد صخرةً تتساقط عليها مياه الأنهار، فاقترب من المكان دونما وَجَل، واحفر حفرةً بعمق ذراع، وأرِقْ فيها حليباً ممزوجاً بالعسل، وأضف إليه شيئاً من الخمر والماء، وذُرَّ على الجميع دقيقَ الشعير. ثم تضرَّع بلجاجة إلى الموتى، وعِدْهم بأنَّك، يومَ تعود إلى وطنك، ستقدِّم لهم الذبائح والقرابين. ثم نادِ «ثيريسياس» العرّاف الذي سيُقبل على الفور، وينبئك بكلّ شيء عن عودتك إلى وطنك.

ونبّأته كذلك «سيرسيه» بأنّه، لدى عودته من عالم الأموات، سيمرّ بجزيرة حوريّات البحر، اللواتي يجذبن البحّارة بسِحر غنائهنّ فيُهلِكْنَهم جميعاً. لذلك عليه وعلى أصحابه أن يسدّوا آذانهم بالشَّمع لئلاّ يؤخذوا بسحر غنائهنّ.

ولمّا بزغ الفجر قدّمت «سيرسيه» إلى «أوليس» جِلْباباً ومِعطفاً جميلين كهديّة. وأيقظ «أوليس»

أصحابه من النوم ، وحثّهم على التأهّب لسفرة أخرى طويلة في عالم الجحيم . فارتعدت فرائصهم للنبأ المشؤوم ، غير أنّ « أوليس » طمأنهم بأنّ الساحرة « سيرسيه » زوّدته بما يقيهم شرّ هذه الرحلة التي لا بدّ منها لبلوغ أرض الوطن .

في مملكة الموت

بعد أن نقل « أوليس » ورجاله العتاد والمؤن إلى السفينة السوداء ، أبحروا في مياه ساجيةٍ زرقاءَ ، تسوقهم ريح مؤاتيةٌ أرسلتها لهم « سيرسيه » . ولمّا أقبل المساء ، وغطّت العتمة البحرَ ، كانت سفينتهم تَلِجُ نهرَ عالم الموت حيث يخيّم ليلٌ أبديّ . فاوقفوا سفينتهم هناك ، ونَزلوا إلى الشاطىء يتقدّمهم « أوليس » الذي راح يبحث عن المكان الذي دلّته عليه « سيرسيه » . ولمّا وجده حفر حفرة وسكب السّكيبة ، وقدّم هو ورفقاؤه الذبائحَ . وعندئذ أقبلت جماعاتُ الموتى زَرافاتٍ زرافاتٍ .

ثم جاء « ثيريسياس » وبيده صولجانُه الذهبيّ ، وخاطب « أوليس » قائلاً :

ـ يا « أوليس » ، لماذا تركت نورَ الشمس وأتيت لترى المائتين في منطقة لا تعرف الفرح ؟ ألا ابتعدْ عن هذه الحفرة لأشرب منهـا وأرتوي فأقول لك الحقيقة .

ولمـّا ارتوى العرّاف من الدم قال :

ـ أنا أعرف يا « أوليس » المجيد أنـّك تتحرّق شوقاً للعودة إلى وطنـك . وعلى الرغم من المحن التي ستلاقي في طريقك ستعود إلى بيتك سالمـاً . ولكن حذارِ حـذارِ أن يمسَّ صَحْبُكَ قطعانَ الإله « هيليوس » بأذى لدى مروركم بجزيرتـه ، لأنّ إله الشمس هذا يرى كلّ شيء ، ويعرف كلّ شيء . فإذا أقدمتم على ذبح أبقاره وخِرافه ، وأكلتم لحومهـا ، أتنبـّا لكم بدمار أكيد . سفينتك ستغرق ، وجميع رجالك سيهلكون . وإذا قُدِّر لـك أن تنجو يا « أوليس » فستعود وحدَك إلى وطنك بعـد مدّة طويلة جدّاً ، وعلى مركب غريب . وحتى حين تعود إلى منزلك ستجد فيه ما يحزنك ويكدّرك : ستجد رجالاً

وقحين ، متعجرفين ، يبتزّون أموالك ، وينهبون خيراتِك ، ويتسابقون بتقديم الهدايا إلى زوجك لكسب ودّها والزواج بها . بأيـّة حال ستردُّ كيدهم إلى نُحورهم ، وتقتصُّ من كلّ الشرور والآثام التي ألحقوا بك .

قال « ثيريسياس » هـذا وعادت روحه إلى عالم الأموات .

ثم عاد « أوليس » مسرعاً إلى سفينته يعصر قلبَه الأسى لهول ما رأى وما سمع . وأمر رجاله بالإبحار في الحال ، فجذّفوا لمدّةٍ ، تساعدهم ريح مؤاتية ، حتى خرجوا من نهر الجحيم ، نهر عالم الأموات .

حُورِيّاتُ البَحْر

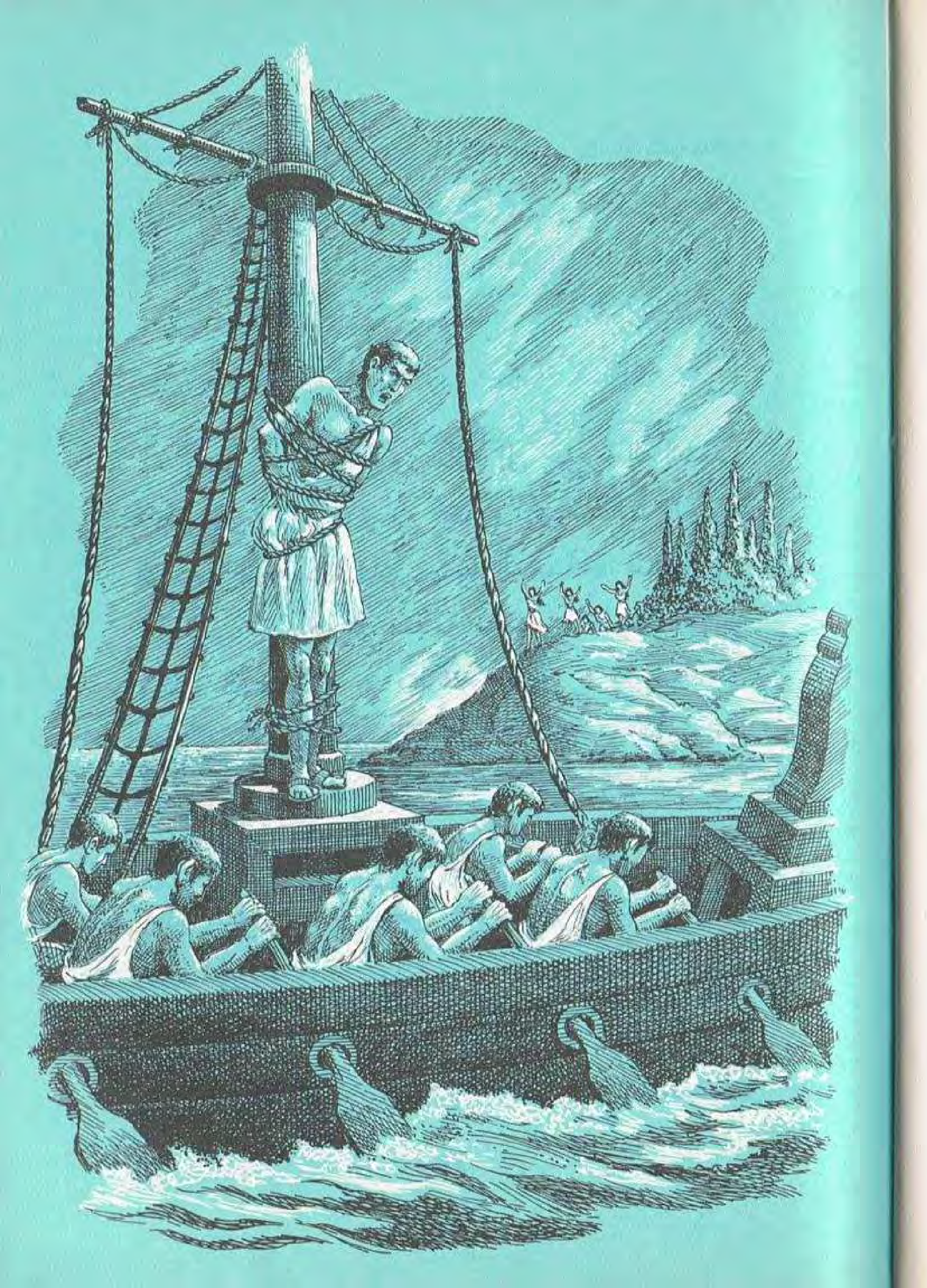
وحين صارت سفينتهم بعيدةً عن عالم الجحيم ظهرت لهم جزيرةُ حوريّات البحر التي حذّرتهم «سيرسيه» منها. ولمّا اقتربوا منها وجدوا حوريّاتها جالساتٍ في مَرْجٍ مخضوضر، وحولَهُنّ تتبعثر عِظامٌ كلسيّة بيضاءُ، هي عِظام ضحاياهنّ من الرجال الذين أخذوا بسحر أصواتهنّ الشجيّة فلاقوا حتفهم.

وما كادت سفينة «أوليس» تدخل مياه الجزيرة وتدنو من ساحلها حتى سكن موج البحر، وخرست الريح، وران على المكان سكونٌ رائع. فانزل البحّارة الأشرعةَ وجعلوها في قاع السفينة، وطفقوا يجذّفون مسحورين بزرقة المياه الحالمة. وهنا سارع

«أوليس» فعجن قطعة كبيرة من الشّمع الأصفر حتى لانت بين يديه، وأخذ يحشو بها آذان رفقائه الواحد تلو الآخر. ثم قام رفقاؤه بدورهم فربطوه إلى سارية، وأحكموا لفّ الحبال حولَ يديه ورجليه وجسمه كلِّه. ثم عاودوا التجذيفَ مضاعفين من سرعتهم. ولمّا صاروا على مقربة من صخور الساحل لمحتهم حوريّاتُ البحر، فتعالت أصواتهنّ الرخيمة بالأنغام الشجيّة الفاتنة قائلاتٍ:

- إلى هنا تعالَ يا «أوليس» الذائع الصيت، يا مجد الآخيّين الباذخ! ألا أوقِفْ سفينتك وأَصْغ إلى صوتنا!

وعبثاً حاول «أوليس»، المأخوذُ حتى الجنون بسحر أصواتهنّ، أن يثير انتباهَ رجاله بحركات حاجبيه وصيحاته المُنْكَرة. وباطلاً انتهرهم وأمرهم بأن يفكّوا وِثاقه، لأنّهم كانوا مُكبّين على مجاذيفهم، لا يسمعون صيحاتِه اليائسة ولا أغاني



الحوريّات العذبة . حتى إذا ابتعدوا عن الجزيرة ، ولم تعد تتناهى إليهم تلك الأغاني ، انتزعوا الشمع من آذانهم ، وحرَّروا « أوليس » من قيوده . وكم كانت فرحتهم عظيمةً لمّا وجدوا أنفسهم بمنأى عن جزيرة الحوريّات .

قطعان إله الشمس

وصل « أوليس » ورفقاؤه إلى جزيرة إله الشمس « هيليوس » ، حيث ترعى أبقارُه الجميلةُ ذاتُ الجِباه الواسعة ، وقطعانُ نعاجه السمينة . فتناهى إلى « أوليس » ، وهو في مقدّمة سفينته ، خُوارُ الأبقار وثُغاءُ النّعاج ، فتذكّر أقوال « ثيريسياس » العَرّاف ، ونصائح « سيرسيه » ، اللّذين حذّراه من أن يمسّ بأذى تلك القطعانَ . فابتدر رفقاءه :

- أصغوا إليّ يا أصحابي ! لقد نصحني العرّاف « ثيريسياس » ، والساحرة « سيرسيه » ، بالابتعاد عن هذه الجزيرة .

فاجابه أحد البحّارة حانقاً :

- فَظٌّ وقاسٍ أنت يا « أوليس » ! لكأنّ

أعصابك قُدّت من حديد ! وَيْحَك ! كيف تمنع صحبك المُتْعَبين البائسين من أن يطأوا هذه الجزيرة ، ليأخذوا لهم قِسْطاً من الراحة ؟ إنّك ما تفتأ تحثّهم دائماً على المضيّ قُدُماً في الليل البهيم ومَتاهاتِ البحر المظلمة . فهلاّ تركتهم ينزلون على هذه الأرض ولو إلى حين ، حتى يأكلوا ويشربوا هنيئاً ، ثم يستأنفوا في الغد رحيلهم ؟!

فوافقه الأصحابُ جميعُهم . عندئذ رفع « أوليس » صوته قائلاً :

- حسناً أيُّها الرفقاء ! لقد غلبتموني على أمري ! ولكنْ أقسموا لي يميناً معظّمة : بالاّ يُقدِمَ أحدُكم ، بدافع من الجنون المشؤوم ، على ذبح واحدة من الأبقار أو النعاج في الجزيرة ، لأنّها قطعان إله الشمس . فإنّ كلَّ مَن يمسّها بأذى هالكٌ لا مَحالة . وإنّما اكتفوا بما عندكم من قُوت زوّدَتْكم به « سيرسيه » .

وحين أقسم رجاله بالامتناع عن ذبح الأغنام

الإلهيّة سمح لهم بالنزول على ساحل الجزيرة . فارَسوا السفينة في جون أمين قرب مياه عذبة ، وأعدّوا عشاءهم . فاكلوا وشربوا ، ثم ناموا . وفي هزيع من الليل ، وبينا الكواكب تُؤْذِن بالأفول ، ثارت عاصفةٌ هوجاءُ غطّت الأرض والبحر بالسحب الدّكْناء ، فاطبق الليل من السماء ولفّ كلّ شيء .

وفي صباح اليوم التالي اقتادوا سفينتهم إلى حِمى غارٍ جميل ، حيث كانت جوقات الحوريّات تعقد حلقات الرقص . وظلّوا هكذا طوال شهر كامل ياكلون ويشربون ممّا عندهم ، ولا يقربون قطعان الإله حفاظاً على حياتهم . وحين نفدت مؤنهم راحوا ، بدافع من الحاجة ، يصطادون الأسماك ويقتنصون الطيور ، ويقتاتون بكلّ ما تقع عليه أيديهم .

وذاتَ يوم ، وبينا « أوليس » قد أوغل في الجزيرة بعيداً عن رفقائه ، وقف أحد رجاله في صَحبه الذين أمضّهم الجوعُ فبان الهُزال والضمور في أجسامهم والشحوبُ على وجوههم ، وراح يحرِّضهم على ذبح

الأغنام الإلهيّة :

ـ أصغوا إليّ أيُّها الرفقاء ! لماذا نتضوّر جوعاً بينما القوت موفور لنا ؟ لقد قاسينا إلى الآن ، وعانينا من الآلام والمحن ألواناً . صحيحٌ أنّ أنواع الموت كلَّها يكرهها الناس ، غير أنَّ أرذل الميتات أن يموت الإنسان جوعاً ، وأن يقول : هذا مصيري . فهلمّوا يا رفقائي لنسوق أمامنا أروع ثيران إله الشمس « هيليوس » فننحرَها ونقدّمها ذبيحة للآلهة . وحين نصل إلى أرض الوطن سنكفّر عن ذنبنا بإقامة مذبح باذخ « لهيليوس » نزيّنه بالتماثيل الجميلة .

فوافقه رفقاؤه ، وهبّوا جميعاً وساقوا أجمل ثيران « هيليوس » القريبة من المكان ونحروها ، وقدّموا أفخاذها مغلّفةً بالدهن ذبيحةً للآلهة ، وأكلوا الباقي مَشْويًّا بالسَّفافيد .

ولمّا عاد « أوليس » ، وتنشّق من بعيدٍ رائحة المُحْرَقات ، عرف أنّ رجاله ذبحوا ثيران الإله . وعبثاً تشاجر معهم واستنكر فعلتهم ، لأنّ الحيوانات

كانت قد ماتت وانتهى الأمر . غير أنّ الآلهة ، لكي تدلّل على قُدْسِيّة تلك الحيوانات ، جعلت جلودها تسعى أمام أنظارهم ، وإذا هم يسمعون خوارها ينجم من لحومها المشويّة على النار . ومع ذلك فقد ظلّ رجال « أوليس » يلتهمونها طوال ستّة أيّام وكأنّهم في عيد ، بينما العواصفُ من حولهم تثور وتولول .

ولمّا كان اليوم السابع هدأت العاصفة . فدخل « أوليس » ورجاله السفينةَ وأبحروا حتى غابت الجزيرة عن أنظارهم . وظلّوا يسيرون في بحر لا أوّلَ له ولا آخر ، فلا أرض تبين لهم من بعيد ، ولا يرون سوى الماء والسماء ، حتى لاحت فجاة ، فوق رؤوسهم ، غمامةٌ دكناء . وما لبث البحر أن أظلم من حولهم ، وجاشت غواربُه ، وأناخ عليهم الليل بكلّ ثقله . وإذا ريحٌ غربيّة تنفخ وتصفر وتتحوّل إلى عاصفة هوجاء ، فتقطّعت الحبال كأنّها القطن ، وهوى الصاري بثقله إلى الوراء على جمجمة

أحد الملاّحين فسحقها . وبدأت السماء تبرق وترعد وتقذف السفينة الواجفة الراجفة بالصواعق ، فامتلأت بدخان الكبريت ، وانقلبت ، ودارت على نفسها ، وسقط جميع رجالها في الماء ، فجرفتهم الأمواج المتلاطمة حول هيكلها الأسود إلى الأعماق . وهكذا قضى الإله « زوس » بأن لا يعودوا إلى الوطن .

أمّا « أوليس » فظلّ يصارع الموج متنقّلاً من طرف السفينة إلى طرفها الآخر ، حتى فصلت موجة عاتية أحد جوانبها عن بقيّة هيكلها وقذفت بصاريها، الذي انشطر شطرَين ، إلى الماء . فتشبّث « أوليس » بسير جلديّ مربوط إلى الصاري ، ووصله بالهيكل ، وتمسّك بهما .

ظلّت الأمواج تتقاذف « أوليس » طوال تسعة أيّام . وفي الليلة العاشرة لفظته ، وهو بين حيّ ومَيْت ، على ساحل جزيرة « أوجيجي » حيث تسكن الإلهة « كاليبسو » ذاتِ الجدائل الجميلة والنُّطق البشريّ .

"تيليماك"، ابن "أوليس"

أخذت « كاليبسو » « أوليس » إلى منزلها الكائن داخلَ مغارةٍ شاهقة ، وعُنيت به عنايةً فائقة لأنّها كانت تريد أن تُنسيَه العودةَ إلى منزله . أمّا هو فقد كان ، كلَّ صباح ، ينحدر الى الساحل ، ويظلّ طول النهار يراقب البحر العريض عساه يشاهد مركباً ماراً ينقله إلى وطنه العزيز « ايثاكا » . وفي المساء كان يعود كَسيفاً خائباً إلى غاره ، فتستقبله الحسناء « كاليبسو » كعادتها ، وقد أعدّت له لذيذ الطعام والشراب . ثم تجلس بإزائه وهي تَحوك على نولها ، وتغنّي أعذب الأغنيات .

وكانت تمرّ الأشهر والسنون ، و « أوليس » يتحرّق شوقاً للعودة إلى زوجه وولده ، و « كاليبسو »

تبقيه حبيس غارها ، مهيّئةً له كلّ أسباب الراحة . حتى أشفقت عليه الآلهةُ ورثت لحاله ، فعقدت اجتماعاً في قصر « زوس » للتداول في أمر « أوليس » . فقامت الربّة « أثينا » تعرض أمامهم ما آلت إليه حالةُ « أوليس » من البؤس والشقاء كلَّ هذه المدّة ، وهو بعيد عن زوجه وولده . وحثّتهم على إرسال الرسول « هيرمس » فوراً إلى « كاليبسو » ليُبلغها قرارهم بإطلاق سَراحه ، بينما تطير هي إلى « إيثاكا » لتبثّ في قلب ولده « تيليماك » العزمَ والشجاعة ، فيقفَ في وجه خاطبي يد أمّه ، وسالبيه مالَه ظلماً وقهراً .

فاتّفق الآلهة على ذلك . وانتعلت « اثينا » في الحال حذاءها الذهبيّ ، فطار بها بسرعة الريح عبر الأرض والبحر حتى بلغت « ايثاكا » . فوقفت بباب منزل « أوليس » وهي متنكّرة بزيّ مسافر غريب . كان أوّل مَن وقعت عينه عليها هو « تيليماك » ، المطرق حزيناً ، يعصر قلبَه الأسى والكآبةُ ، فدعاها إلى

الدخول . ثم قادهـا إلى قاعة فسيحة ، وقدّم لها كرسيّاً فخماً ، ومقعداً صغيراً تُسند إليه قدميها . وأحضرت إحدى وصيفات القصر الماءَ في إبريق من ذهب على طبق من فضّة ليغسل الضيفُ يديه . كانت تلك عوائدهم في إكرام ضيوفهم . ثم جاء خادم بمائدة عليها ألوانُ الأطعمة والأشربة الشهيّة ، لأنّ « تيلياك » كان يريد أن يهيّئ لضيفه جوّاً هادئاً قبل أن يأتي الطامحون بالزواج بأمّه ، ويُغرقوا المكان بصخبهم وضجيجهم . وأخيراً توافد هؤلاء يجرّون ذيولهم كالطواويس اختيالاً وزهْواً ، وتهالكوا على المقاعد الوثيرة ينتظرون ، على جاري العادة ، أن يُقدَّمَ لهم الطعامُ والشراب .

فسألت « أثينا » ، المتنكّرةُ بزيّ الرجل الغريب ، « تيلياك » :

– مَن كلّ هؤلاء القوم ؟ ترى ، أهذه وليمة ، أم حفلة عرس ؟ ألمهمّ أنّ هؤلاء الرجال لا يتصرّفون تصرّفَ الكِرام .

أجاب « تيلياك » حزيناً :

– ما دمتَ قد سألتني ، أيُّها الضيف الكريم ، فينبغي أن أصارحك بكلّ شيء . إنّ القصر الذي أنتَ نازل فيه الآن عريقٌ في العزّ والشرف ، غير أنّ صاحبـه ، الذي هو أبي ، ذهب ليحارب في « طروادة » ولم يعد منها . وإلى اليوم لم يصلنا أيّ نبإ عنه ، يُستفاد منه أنّه حيّ أو ميت . وهؤلاء الرجال الذين تلاحظهم هم نبلاء هـذه الجزيرة . ولا يني كلٌّ واحد منهم يطلب يد أمّي ، وبحجّة ذلك تراهم يتسكّعون كلّ يوم في بيتي ويبذّرون أموالي .

– وأمّك ، ما موقفها من طلباتهم ؟

– أمّي المسكينة لا تريد الزواج بأيّ منهم ، ولكنّهـا لا تفصح لهم عن ذلك . فهي لا تجافيهم ، ولا تطردهم ، ولذلك تراهم قابعين هنا دوماً ، يأكلون ، ويشربون ، وينتظرون ، ويكادون أن يلتهموا الأخضر واليابس في هذا البيت .

– لقـد آن الأوان لأن يعود والدك ويطرد

جميع هؤلاء الطفيليّين المغرورين . وحتى ذلك الحين أنت ربُّ هذا البيت الوحيد .

وما انتهت « أثينا » من تناول طعامها حتى بارحت القصر بعد أن بذرت في قلب « تيليماك » بذور الشجاعة والباس .

ولمّا أقبل المساء أخذ الشاعر ينشد نشيداً حزيناً يدور على حرب « طروادة » ، فتناهى صوته إلى « بينيلوب » ، زوجِ « أوليس » ، في مقصورتها . فلم تتمالك ، فنزلت السلالم تواكبها وصيفتان . كان وجهها مقنّعاً بحجاب شفّاف . فاستندت إلى عمود ، وتوسّلت ، دامعةً ، إلى الشاعر أن يكفّ عن هذه الأغنية الحزينة ، وينشد أخرى .

فقاطعها « تيليماك » بنبرة الآمر الناهي :

ـ أمّي ، لا تلومي الشاعر على نشيده ، « فأوليس » ليس المحارب النبيل الوحيد الذي لم يرجع من « طروادة » . عُودي إلى غرفتك وإلى

نولك ونسيجك ، ودعي الكلام للرجال ، دعيه لي أنا لأنّي سيِّد هذا القصر .

تفوّه « تيليماك » بهذه الأقوال بقصد التأثير على طالبي يد أمّه ، ففرحت في سرّها لجرأته ، وعادت بهدوءٍ إلى مقصورتها .

في تلك الليلة توقّف طالبو يد « بينيلوب » عن الغناء والرقص والضوضاء ، وقفلوا راجعين إلى بيوتهم وهم يحسبون ألف حساب للفتى « تيليماك » الذي انقلب ، بين ليلة وضحاها ، إلى رجل عنيد صنديد يذكّر بوالده « أوليس » .

أمّا « تيليماك » فقد ظلّ الليلَ كلّه يفكّر بأقوال ضيفه ، وبما ينبغي أن يُعدّ . وفي الصباح دعا إلى اجتماع في المدينة ، وراح يخطب في الجماهير المحتشدة منّدداً بوقاحة النبلاء طالبي يدِ أمّه ، مستنكراً جَشَعَهم وطريقةَ تصرُّفهم الشائنةَ في منزله .

ولمّا أتى على نهاية خطبته انبرى أحد هؤلاء النبلاء ، فتوسّط الجموعَ بعد أن خطف العصا من

يد « تيليماك » ، وخطب فيهم موجّهاً كلامه إلى الشابّ :

ـ أهكذا تعيّرنا يا « تيليماك » بهذا الأسلوب المشين ؟ ألا اعْلَمْ أنّ الخطأ كلّه إنّما يقع على والدتك الخدّاعة المراوغة ، لأنّها ، طوال هذي السنين الثلاث ، ما انفكّت تعلّلنا بالأمانيّ العِذاب ، وتلفّق لنا الوعود السخيّة . وإليك بآخر حيلة من حيلها : زعمت لنا أنّها تحوك على نَوْلها كَفَناً لجدّك النبيل « لايرت » ، وطلبت إلينا أن نتحلّى بالصبر حتى تفرغ منه . فوافقنا كلّنا على ذلك . لقد كانت تجدّ في حياكته طول النهار ، حتى إذا حلّ الليل فكّته برمّته على ضوء المشاعل . وهكذا خدعتنا كلّ هذا الوقت على هذا النحو ، حتى اكتشفت أمرَها إحدى خادماتها في بداية السنة الرابعة وباحت لنا بالسرّ . وحين أمسكناها بالجرم المشهود لم تَرَ بدّاً من إتمام الكفن المزعوم . ولذلك أقول لك الآن ، وأمام الجميع ، بأنّنا لن ندعها تخدعنا بعد اليوم ، فلا بدّ

أن يقع اختيارُها على واحد منّا ، فيتزوّجها .

عندئذٍ تقدّم عرّاف « إيثاكا » من خاطبي يد « بينيلوب » وقال لهم محذّراً منذراً :

ـ إنّ طالِعكم لسيّىء أيّها الرجال ، وإنّ مصيركم لقاتم . تذكّروا أنّني أنبأتكم من زمان بأنّ « أوليس » سيعود بعد أن يكون قد فقد جميع رجاله . وها انّ الزمان قد قرب ، كما أنّ نهايتكم قد باتت قريبة .

فنهض أحد النبلاء وخاطب العرّاف بسخرية واحتقار :

ـ عُدْ إلى منزلك أيّها العرّاف ، وأخبر صغارك بنبوءتك . ولكنْ مهلاً ، فإنّني أعطيك نبوءة أفضل ، إذ أعلن على الملإ بأنّ « أوليس » قضى نحبه من زمان ، وأنّ جميع أمواله ستذهب هَدْراً إن لم يتزوّج واحد منّا « بينيلوب » .

في ذلك النهار تيقّن « تيليماك » بأنّ طالبي يد أمّه لن يفارقوا منزله بسهولة ، ولذلك راح ، بينه وبين نفسه ، يفكّر بخطّة للخلاص منهم .

«أوليسُ» يَصنَعُ لِنفسِهِ رَمْثًا

وأخيراً قرَّر « زوس » ، جامعُ السحب ، أن يضع حدّاً لآلام « أوليس » . فأرسل مبعوثه « هيرمس » إلى « كاليبسو » ليخبرها بقراره . فتسلَّح « هيرمس » في الحال بعصاه السحريّة التي توقظ من يشاء وتنيم من يشاء ، وانتعل حذاءه الذهبيَّ ، وطار كالريح قاطعاً الأرضَ والبحر بلحظات ، حتى وصل إلى الجزيرة . فوجد « كاليبسو » في غارها وقد أوقدت ناراً عظيمة يتضوَّع منها عِطرُ الصنوبر والأرز . وكانت الجنّيّة الجميلة تغنّي بصوتها الرخيم وهي تنسج على نولها ، ومن حولها تغرّد أسرابٌ من الطيور والعصافير من كلّ الأجناس ، وتترامى حقولٌ مخضرة مزهرة . فأُخذ « هيرمس » بروعة المكان ، ورقص قلبه

طرباً بكلّ ما يرى ويسمع . وما إن دخل غار الجنيّة حتى عرفَتْه . إلاّ أنّ « هيرمس » لم يجد « أوليس » في المغارة ، لأنّه ، كعادته ، كان في ذلك الحين قاعداً على شاطىء البحر ، في المكان نفسِه الذي اعتاد أن يقعد فيه ، وهو يبكي من فرط الحزن والأسى ، وأنظاره الدامعة الساهمة تسرح في البحر العريض .

وبعد أن مدّت « كاليبسو » أمام « هيرمس » مائدةً قالت :

- إيه « هيرمس » ، يا صاحب الصولجان الذهبيّ ، ما الذي أتى بك إلى هنا ، وليس من عادتك أن تزورني في هذا المكان ؟

- سأقول لك الحقيقة يا « كاليبسو » . إنّ الإله « زوس » هو الذي أرسلني إليك . ولقد قال لي إنّك تحتجزين في غارك أحد العائدين من « طروادة » . إنّ هذا الرجل المسكين قد لاقى من ألوان العذاب والمحن ما فيه الكفاية ، ولذلك يُهيب بك الإلهُ أن تطلقي

سراحه ،لأنّه مقدّر له أن يعود إلى وطنه .

خافت « كاليبسو » لسماع هذه الأقوال ، وقالت :

ـ إنّني أنقذتُ هـذا الرجلَ من غضبة اليمّ وأمواجه ، وحويته في غاري ، وعُنيت به عنايةً فائقة ، حتى إنّني شئت أن أمنحه الشباب الدائم . ولكنْ إذا كانت مشيئة « زوس » أن يترك هذه الجزيرةَ ، فليتركها وليرحل . غير أنّي لا أملك قارباً لأضعه تحت تصرّفه . وليس بميسوري أن أنقله إلى وطنه بنفسي . إنّما ساساعده على ذلك قدر المستطاع .

وحين اختفى « هيرمس » عن أنظار « كاليبسو » سارعت في البحث عن « أوليس » ، فوجدته قاعداً على الشاطىء ، وعيناه مغرورقتان بالدموع على جاري عادته . دنت منه وقالت له وهي تقعد بجانبه :

ـ كُفّ عن البكاء يا « أوليس » ، فإنّي ساساعدك على مغادرة هذا المكان ما دمت تريد ذلك . وسوف

أزوّدك بالخبز والماء ، وأعطيك الثياب اللازمة ، ورمَثاً صالحاً ، وريحاً مؤاتية .

وارتجف « أوليس » لأقوال الجنّيّة :

ـ لعلّك تدبّرين لي أمراً آخرَ غير العودة يا « كاليبسو » ، لأنّك تريدين أن أقطع برَمثٍ مهاوي البحر العريض التي يستحيل قطعها حتى على السفن السريعة . لا ! لن أقوم بهذه المغامرة ما لم تُقسمي لي قسَماً عظيماً أنّك لن تدبّري لي مكيدة تؤدّي إلى هلاكي .

ـ إنّك لخبيث يا « أوليس » ، لتفوّهك بهذه الأقوال ! إنّني أستشهد الأرضَ ، والسماء ، والبحر الذي تحتها ـ وهذي أعظم يمين أقسمها ـ بأنّي لن أضمر لك أيّ شرّ ، ولن أدبّر لك أيّة مكيدة لهلاكك .

وفي صباح اليوم التالي ارتدى « أوليس » جلبابه ومعطفه . وهيّأت له « كاليبسو » فأساً برونزيّة كبيرة ذات حدّين قاطعين ، وحبالاً ، ، ثم أخذته إلى

طرف الجزيرة حيث تنتصب أشجار الحور والعفص والصفصاف ، وتستلقي على الأرض جذوعٌ صلبة يابسة تصلح للعوم .

فشمّر « أوليس » عن ساعدَيه ، وراح يُهوي بفأسه الحادّة على جذوع الأشجار السامِقة ، فأسقط منها عشرين . ثم أخذ يشذّبها بفأسه ، مثل نجّار محترف ، ويحدث في أطرافها ثقوباً . وربطها جنباً لجنب بحبال متينة . ثم شدّ الكلّ بعوارض أحكم رَبْطَها ، حتى تهيّأت له عوّامةٌ عريضة متينة جهّزها بسارية ، ودفّة قيادة ، وشراع ربطه بفنّ . وغطّى أرض رَمَثه بطبقة كثيفة من أوراق الشجر ، ثم دفعه إلى البحر الساكن اللمّاع .

كان « أوليس » قد أنهى عمله هذا بأربعة أيّام ، وفي الخامس سمحت له « كاليبسو » بالإبحار بعد أن جهّزته بالثياب ، وزوّدته بمؤونة الطريق من خبز وماء ، فضلاً عن ريحٍ رُخاء نفختها في شراعه . فأبحر « أوليس » وقلبُه مُفْعَم بالغبطة ، ويده على

دفّة القيادة يديرها بحكمة وفنّ . طوال سَبْعَةَ عَشَرَ يوماً لم ينِ عن الاندفاع في البحر العريض . وفي الثامِنَ عَشَرَ بانت له جبالٌ سمراءُ تبدو ، لقربها ، كالترس على اليمّ الملفّع بالضباب .

صِراعٌ مع الأمواج

وفي أحـــد الأيّام ثارت العواصف ، وتلبّدت السماء بالغيوم ، ثم حلّ الليل على الأرض كالرصاص . وشعر « أوليس » بتخاذُل في قلبه وركبتيه ، فصرخ يائساً :

ـ آه ! يا لي من تعيس ! ماذا سيحدث لي هذه المرّة ؟ إنّني أخشى أن تتحقّق نبوءة « كاليبسو » فألاقي أهوالاً أعظم على هذا البحر اللُّجّيّ قبل أن أدرك وطني . ألا ليتَني مُتُّ مـــع مَن مات في « طروادة » ، إذن لكانت أُقيمت لي على الأقـلّ مراسيمُ لدفني ، ومجّدني الآخيّون . أمّا اليوم فقد قُدّر لي أن أموت في هذه الأعماق نَسْياً مَنْسيّاً .

وما أتمّ شكواه حتى انقضّت موجة عالية عاتية

على رمثه فقلبته وقصفت صاريه ، ورمت « باوليس » بعيداً عن حطامه فغيّبه الموج لوقت طويل ، بسبب ثيابه الثقيلة . ولكنّه ما لبث أن عـــام ، ولم يفقد رشده رغم التعب الذي هــدّ حيله . فسبح نحو رمثه ، وتسنّمه ، واقتعد وسطه . وظـــلّ يترجّح على الأمواج ، تتقاذفه الرياح هنا وهناك ، حتى أبصرته الإلـهة « إينو » ابنة « قدموس » ، القابعةُ في أعماق المحيط ، فاشفقت عليـــه ، واتّخذت شكل طائر النورس وحطّت على طرف عوّامته ، وخاطبته :

ـ ماذا حلّ بك أيُّها الشقيُّ المعذّب ؟ إسمــع جيّداً نصيحتي ، لأنّي ألمح في وجهك سيماء النباهة والنبل . إنزع عنك هذه الثيابَ الثقيلة ، ودع الرياح تسوق رمثك . ثم اسبحْ بعزم وإصرار ، فأرضُ « الفياسيّين » ليست بعيدة عنك وإليك هـــذا الحجابَ ، لفّه حول صدرك ، فإنّه يقيك خطر الموت . وحالما تبلغ الساحل ، تخلَّ عنه وارمِه بعيداً ، من غير أن تلتفت صوبه .

وما ان أتمّت « إينو » كلامها هذا حتى أعطته الحجـاب ، وغطست في البحر الهائج بشكل طائر النورس ، وضاعت في لجّته السوداء .

خاف « أوليس » أن تكون حيلةً أخرى للإيقاع به . فآثر أن يظلّ متشبّثاً برمثه طالما تتماسك أخشابه . وحين تنفصل بفعل الموج فعندئذ لا يبقى أمامه إلاّ أن يسبح ويعمل بنصيحة الإلهة الفينيقيّة .

وفيما هو يفكّر هكذا هاج البحر هياجاً عظيماً ، فتعالت موجةٌ كالقُبّة فوق رأسه ، وهوت بثقلها كلّه على عَوّامته فحطّمتها شرّ تحطيم ، وتقاذفت أخشابها ، فتشبّث « أوليس » بأحد ألواحها . ولمّا تذكّر نصيحة « اينو » نزع عنه ثيابه ، ولفّ الشال الذي أعطته حول صدره ، وغطس في الماء يسبح نحو الشاطىء .

ظلّ « أوليس » يسبح في البحر العريض حتى لمحته

الربّة « اثينا » ، فأشفقت عليه ، وشلّت حركة الرياح العاصفة بموج البحر ، عدا ريح الشّمال التي راحت وحدها تقذفه شطر الساحل البعيد .

وبقي « أوليس » نهارين وليلتين يمتطي ظهر الأمواج المؤاتية ، وقد أحاق به الموتُ مرّاتٍ ومرّات .

وما ان بزغ فجر اليوم الثالث حتى هدأت الريح ، وران السكون على البحر ، فلمح الساحل القريب وهو يمتطي مَتْنَ موجة . ومثل أولاد يطيرون فرحاً لرؤية والدهم يعود من سفر طويل ، هكذا كانت فرحة « أوليس » برؤية الشاطىء والغابة التي عليه . فضاعف من سرعته في السباحة لبلوغ الساحل . لكنّه لمّا صار على مقربة منه ، سمع لتكسُّر الموج على صخوره دويّاً عظيماً . لم يكن هناك جون لحماية السفن ، بل صخور مسنّنة ، شاهقة ، وقائمة كالسور . فقال « أوليس » في نفسه ، وقد خار عزمُه ، وأخذه الخوف :

ـ وَيْلاه ! بعد أن ذُقت من الأهوال ما ذقت ، وقطعت سابحاً تلك المهاوي السحيقة في خضمّ اليمّ ، لا أجد الآن أمامي منفذاً واحداً للخروج ، سوى هذا الساحل الصخريّ الذي تتكسّر عليه الأمواجُ المزبدة ، وترتدّ مزمجرة مرعدة . وخلفي مياهٌ عميقة لا أثر فيها لمكان واحد أُريح عليه قدميّ . ويلاه ! فلا التقدُّم إلى الأمام بسالم من الخطر ، ولا التقهقر . ولا أمان كذلك في البقاء حيث أنا الآن . فإمّا أن تعود تيّارات البحر فتجرفَني إلى متاهاته ، أو ينجمَ كلبٌ من كلاب البحر فيلتهمني .

وفجأة قذفته موجةٌ عالية بقوّة على الصخور . ولو لم يثب إلى وعيه ، ويتشبّث بالنتوءات التي أمامه ، لكان تمزّق جلده وسُحقت عظامه . ثم عادت الأمواج فارتدّت عليه ، وانتزعته من الصخور ، ورمته بعيداً في البحر ، فجرفه التيّار هذه المرّة إلى مصبّ نهر نمير ، حيث لا صخور يُخشى الارتطام بها ، ولا رياح تلطم السمع وتبعث في القلب الهلع .

فناجى « أوليس » من أعماق قلبه النهرَ الرحيم ، وخاطبه :

ـ أيّ كائن كنت أيّها النهر ، فإنّي أضرع إليك راكعاً أن تستجيب دعائي ، وتنقذني من الويلات ، وتمنحني الراحة في كنفك .

ولمّا سمع النهر دعاء « أوليس » الحارّ توقّف عن الجريان ، وحمله إلى حضنه الأمين . فارتمى « أوليس » على رمال النهر الناعمة مهدَّم الحَيل ، مُثْقَلَ الجسم بالجراح ، ومياه البحر المالحة تقطر من فمه ومنخريه . وحين استردّ أنفاسه تذكّر الحجاب الذي أعطته الإلهة « اينو » ، فانتزعه عن صدره ورماه في مصبّ النهر من غير أن يلتفت إليه ، فجرفته موجة كبيرة إلى التيّار حيث تلقّفته صاحبته بين يديها . ثم ابتعد « أوليس » عن النهر ، لأنّ هبّات هواء باردة كانت تلسعه ، واستلقى لفترة قصيرة بين الغزّار ، وهو يقبّل الأرض المِعطاء ويتمتم في ذات نفسه : « ترى ، أيّة مصائب أخرى جديدة تتربّص بي ؟ لأنّي

أخشى ، إن أنا نمت هنا ، أن أهلك بصقيع الليل ، أو أن أصبح فريسة للوحوش الضارية » .

ونهض ثانية ويمَّم شَطْرَ أَجَمة تقع على ضفَّة النهر ، واختبأ تحت شجرتَي زيتون متلاحمتَي الأغصان كالخيمة ، في مكان لا تطاله أنفاس الريح ، ولا أشعَّةُ الشمس ، ولا المطر . واستلقى هناك على طبقة كثيفة من ورق الشجر اليابس ، وتغطّى بطبقة مماثلة ، واستسلم لرقاد عميق ، عميق

«نوزيكا» الحسناء

في الوقت الذي كان «أوليس» يسعد بنومه المريح ، انطلقت الرَّبة «أثينا» إلى بلد الفياسيّين وهبطت في قصر ملكهم «إلسينوس» ، وتسلَّلت إلى مُخْدَع ابنته «نوزيكا» المستلقية على سريرها ، فوقفت قرب رأسها متَّخذةً شكلَ صديقة لها من سنِّها ، أثيرةٍ لديها ، وكلَّمتها قائلةً :

- «نوزيكا»، كيف اتَّفق لأمِّك أن تلدَ ابنةً مهملة مثلك ؟ أنظري ، فثيابُك متَّسخة ومرميَّة هناك بإهمال ، بينما زِفافُك بات قريباً . ينبغي أن تتحلَّي أنت ورفيقاتك يوم عرسك بأجمل ثياب ، وأفخر زينة ، حتى يذيع صيت أبيك وأمِّك بين الناس . فهيّا انهضي حالما يبزغ الفجر ، وخذي ثيابك إلى

النهر لغسلها . أنا أيضاً سأرافقك إلى هناك لأساعدك .

قالت « أثينا » هذا وغادرت المكان . فاستيقظت « نوزيكا » في باكر الصباح مذهولةً وفرحة بالحلم الذي رأته ، وصنعت كما أوحت لها رفيقتها في المنام . فركبت عربة عالية تجرُّها البغال وضعت فيها جميع ملبوساتها التي هي بحاجة للغسل ، وهيّأت لها والدتها زادها المكوّن من أنواع المأكولات والحلوى ، فضلاً عن قارورةٍ من ذهب فيها زيتٌ رائق لمسح الجسم بعد الاستحمام . فقفزت « نوزيكا » إلى العربة ، وأمسكت بالزمام ، وساقت بغالها بقوّة ، فطارت هذه تنهب الريح ، وصوت سنابكها يُسمع من بعيد . وكانت وصيفات « نوزيكا » يرافقنها في هذه الرحلة .

ولمّا وصلن إلى النهر حيث تُغسل الثياب ، أطلقن سراح البغال لترعى البرسيم الحلو كالعسل ، وحملن الملابس للضفّة ، فوضعنَها في حُفَر أُعدّت خصّيصاً للغسل ، وطفقن يطأنها حتى زالت عنها

جميع بقعها ، ثم نشرنها على الحَصْباء حيث لا يطالها الموج .

وبعد أن استحممّت « نوزيكا » ووصيفاتها ، وتضمّخن بالطّيب ، تناولن طعامهنّ على حافة النهر ، بانتظار الشمس حتى تجفّف الثياب المغسولة . ثم نهضن وأخذن يلعبن بالكرة ، ويرقصن ، ويغنّين .

ولمّا حان وقت أوبتهنَّ ، وقد فرغن من طيّ الملابس ، وشدَّ البغال إلى العربة ، أوحت الربَّة « أثينا » إلى « نوزيكا » بأن تقذف الكرة بشدّة إلى إحدى وصيفاتها . فإذا بالكرة المقذوفة تذهب بعيداً وتسقط في النهر . فندّت منهنّ جميعاً صرخةٌ قويّة ، استيقظ لها « أوليس » من نومه ، وراح يتساءل :

– ألويلُ لي ! في أيّ بلد أنا الآن ؟ وهل سكّانه قومٌ متوحّشون عديمو الرحمة ، أم هم مِضيافون يرحّبون بالغرباء ؟ كأنّني سمعت صوتَ حوريّات .

يجب أن أتحرّى عن ذلك بنفسي !

وخرج من الغابة وقد اقتطع غصناً كثير الأوراق غطّى به جسمه ، فكان أشبه بأسد واثق من قوّته ، وعيناه تقدحان الشّرَر . وتقدّم من الفتيات الجميلات متخفّياً ، فهرعن من أمامه مذعوراتٍ . ولكنّ « نوزيكا » ظلّت وحدَها واقفةً في مكانها . ولم يَدْرِ « أوليس » كيف يجابهها ، وقد أذهلته شجاعتُها ، وتساءل : أيركع أمامها متوسّلاً ، أم يخاطبها من حيث هو بكلمات رقيقة لتسعفه بثوب يلبسه ، ومن ثم يسألها عن طريق المدينة ؟ ورأى ، بثاقب بَصيرته ، أن يكلّمها من مكانه لئلاّ يجفّلها كما جفّل رفيقاتها . قال :

ـ أتوسّل إليك أيّتها الملِكة ، أجنّية أنتِ أم إنسيّة ؟ فإذا كنتِ من بنات البشر فليتباركْ إخوتُك ، والأبوان اللذان أنجبا مثلَ هذا الجمال . سعيدٌ الرجل الذي يحظى بك زوجاً ! أتوسّل إليك ، أيّتها المليكة الفاتنة ، أن تعطيني رداء أستر به

جسمي ، ولتمنحك الآلهةُ كلّ ما ترغبين .

فاجابته « نوزيكا » :

ـ أيّها الغريب ، يبدو عليك أنّك رجل شرّير أو غبيّ . وبما أنّك الآن في بلدي فلن تُعدمَ الثيابَ ، ولا أيَّ عون يطلبه إنسان غريب منّا . أمّا بلدي فهو بلد الفياسيّين ، وأنا ابنة مليكهم « إلسينوس » .

ثمّ نادت وصيفاتها وطمانتهنّ بانّ الرجل ليس بعدوّ يُخشى شرُّه ، وأمرتهنّ بإلباسه ، وإطعامه ، وإعداد جميع وسائل الراحة له .

وبعد أن استحمّ « أوليس » ، وتطيّب بالعطر ، وارتدى الثياب التي قُدّمت له ، أضفت عليه الرّبّة « أثينا » الصحّةَ والجمال ، فبرزت عضلاته ، وتساقطت خصل شعره على كتفيه ، فبان أصغر سنّاً وأكثر فتوّة وجمالاً . فتمنّت « نوزيكا » وقتئذٍ ، وقد أخذت برجولته وبهائه ، أن تهبها الآلهةُ زوجاً

مثله . ثم قُدِّم له الطعام والشراب فاقبل عليهما بنَـهم ، لأنـه لم يكن قد ذاق طعاماً من زمن طويل . ولمّـا أشبع جوعـه وأروى غليله صعدت « نوزيكا » إلى عربتها ، ودعته لمرافقتها إلى المدينة .

ولكنّها نصحته بان يظلّ بصحبـة الوصيفات طالما هم يسيرون في الحقول والأرض المزروعة ، ثم ينفصل عنهنّ حين بلوغ المدينة المحصّنة ، ذات الأبراج العالية ، لئلاّ يشيع الناس عنها الشائعاتِ المغرضة ، كأن يقولوا : مَن هذا الرجل الطويل الجميل الذي يتبع « نوزيكا » ؟ وأين عثرت عليه ؟ وهـذا ، ولا ريب ، سيصبح زوجاً لها ، لأنـها بنفسها ذهبت للقائه ، وما شابه ...

وحين قارب الرَّكْب المدينةَ التفتت « نوزيكا » إلى « أوليس » الذي كان يسير مـع الموكب وهو مطرِق حزين ، وقالت له :

ـ أمّا الآن وقد دنونا من المدينة التي ترى من

هنا أبراجَها السامقة ومرفأيهـا ، فاَصغِ جيداً أيُّها الغريب لما أقول لك . لكي تحظى برضى والدي ، وتنالَ منه كلَّ ما تريد ، اعملْ بنصيحتي هذه : ستجد على مقربة من الطريق حرجاً من الصفصاف يسقيه نبـع ويتحلّـقه موج . إنتظرْ هناك ريثما أكون قد وصلت أنا إلى المنزل . ومن ثمّ ادخل المدينة ، واسال عن قصر الملك « إلسينوس » . وبعد أن تجـوز ساحة القصر وتلجه مُرَّ سريعاً بصالته الكبرى ، فتجد والدي متربّعاً على عرشه ، وعلى مقربة منه ، حدَّ الموقد ، والدتي تسند ظهرها إلى عمود وخلفها وصيفاتها ، وهي تغزل على ضوء الشعلة صوفَها الأرجـوانيّ . جاوز والدي ، واحضن ركبتَي والدتي ، فـإذا رقّ قلبها عليك أدركتَ مُناك ، وأمَلْتَ برؤية مَن تحبّ .

كان النهر قـد صار خلفهم حين آذنت الشمس بالمغيب وبانَ حرج الصفصاف . فغادر « أوليس » الموكِب ودخل الحرج . وهناك صعَّد دعاءه إلى الرّبة « أثينا » وتوسّل إليها أن ترقّق قلوب الفياسيِّين كي

يُكرموا وِفادته ويمنّوا عليه بالعَطف .

وعندما أدرك « أوليس » أنّ « نوزيكا » الحسناء قد تكون دخلت قصر والدها الملك « إلسينوس » ، غادر بدوره الغابةَ واتّجه صوب المدينة . فجلْبَبَتْه الرّبة « أثينا » بالضباب لكي تخفيه عن أعين الفياسيّين، خوفاً من أن يستوقفه أحد المغرورين منهم ، فيسأله عن اسمه ويستفزّه بكلمات نابية جارحة . ولمّا صار على مقربة من المدينة دلفت الرّبة « أثينا » للقائه ، وقد اتّخذت شكل فتاة صغيرة تحمل جرّة ، ووقفت أمامه . فسألها « أوليس » :

ـ هلاّ قُدْتِني يا ابنتي إلى قصر الملك « إلسينوس » ؟ فانا رجلٌ غريب وقادم من بعيد ، ولا علمَ لي باحدٍ من سكّان هذا البلد .

فاجابته الربّة البرّاقة العينين :

ـ أنا أدلّك عليه ، أَبتي الغريب . أمّا أنت فرافقني من غير أن تلتفت إلى أحد ، أو أن تسال

أحداً . لأنّ القوم هنا لا يطيقون الغرباء ، ولا يرحّبون بقادم من خارج . إنّهم لا يثقون بغير سفنهم عابرة المحيط

وراح « أوليس » يتعقّب « أثينا » على الأثر ، والفياسيّون لا يرونه ، ولا يشعرون أنّه يمشي بينهم ، لأنّ الإلهة ، التي تكنُّ له عطفاً خاصًّا ، كانت قد لفّعته بغمام عجيب . وكم كانت دهشته عظيمة لرؤية الميناء ، والسفن الراسية ، والأسوار العالية ، والأبراج المحصّنة ، والأمكنة التي يتجمّع فيها الأبطال . لقد كان منظراً يسبي العقول .

ولمّا وصلا إلى قصر الملك قالت له الرّبة :

ـ هذا هو القصر الذي سالت عنه أيّها الغريب . أُدخله من غير تردُّد وخوف ، فالملك رجل مِضياف كريم .

فاتّجه « أوليس » صوبه ، ووقف مبهوراً قبل أن يطأ عتبته البرونزيّة . لقد كان القصر يشعّ ويتألّق

كما لو أنّ نور الشمس أو القمر يسطع عليه فجدرانه المرتفعة عن يمين ويسار كانت كلّها من برونز ، وكانت أبوابه من ذهب خالص ولها أُطرٌ من فضّة . أمّا المدخل فتحرسه من الجانبين كلابٌ من ذهب وفضّة . وكانت الصالة الكبرى مؤثّثة ، من عتبتها حتى أقصاها ، بمقاعدَ وثيرةٍ مغطّاة بنسيج رقيق منمنم . هناك كان يجلس زعماء الفياسيّين وهم يشربون ويأكلون ليلاً على ضوء مشاعل يحملها صِبْيَة من ذهب منتصبة على قواعد ثابتة .

ظلّ « أوليس » واقفاً يتأمّل روعة المكان مأخوذاً بسحره . ولمّا امتلأ قلبه دهشة من كلّ ما رأى ، جاز العتبة بسرعة ودخل القصر ، فوجد زعماء الفياسيّين ومستشاريهم قاعدين على كراسيهم الفخمة . فمرّ أمامهم ، مسربلاً بغمامة صفيقة وشّحته بها الربّة « أثينا » ، فلم يرَه واحد منهم ، حتى وجد نفسه أمام « أرتي » الملكة ، وأمام زوجها « إلسينوس » . فاحتضن « أوليس » ركبتي « أرتي » ، وعندئذ انقشعت

عنه الغمامةُ الإلهيّة التي كانت تحجبه ، فانعقدت ألسنةُ الحضور دهشةً لدى رؤيتهم البطل « أوليس » في الصالة ، لأنّ منظره كان يسبي العقول .

وراح « أوليس » يخاطب الملكة بهذه الكلمات :

- أيّتها الملكة « أرتي » ! إنّني قصدتك بعد أن قاسيت أهوالاً ومحناً كثيرة ، ولذلك أتوسّل إليك راكعاً أن تعطفي عليَّ ، وتساعديني على الأوبة إلى وطني وأهلي الذين فارقتهم من زمان .

قال « أوليس » هذا وقعد على الرماد بجانب الموقد ، الأمر الذي أذهل الجميع وأخرسهم . فقطع الصمتَ المطبقَ البطلُ الشيخ « أخينوس » ، وكان أكبرَ الحضور سنّاً ، وخاطب الملك :

- أيّها الملك « إلسينوس » ، لا يليق بضيف أن يستمرّ قاعداً على الرماد ... وإذا كان الحضور قد صمتوا فلأنّهم ينتظرون كلامك . فهلاّ أمرتَ بان ينهض الضيف ويأخذ مكانه بيننا ؟

عندئذٍ نهض الملك وأخذ بيد « أوليس » وأجلسه على مقعد برّاق . وجاءت وصيفةٌ بإبريق من ذهب وطبق من فضّة ، وسكبت الماء على يدَي « أوليس » . ثم جيء بمائدة فوُضعت أمامه ، وراحت الخادمات ينقلن إليها أصناف الطعام والشراب .

كان أوّل شيء لفت أنظار الملكة ، بعد إنهاء تلك المراسيم ، الثياب الجميلة التي يرتدي « أوليس » ، إذ عرفت فيها المعطفَ والجلبابَ اللذين خاطتهما بنفسها بمساعدة وصيفاتها . فقالت له :

ـ أيُّها الضيف أسالك أوّلاً عن اسمك وبلدك . ثم أصْدِقْني القولَ ، مَن أعطاك هذه الثياب ؟ ألم تزعم أنّك وصلت إلى هنا وأنت تتيه على البحر ؟

فأجابها « أوليس » صاحب الألف حيلة :

ـ يصعب عليّ أيّتها الملكة أن أقصّ عليك بالتفصيل جميع أحزاني ومصائبي ، غير أنّي ساجيبك عن سؤالك ، وأخبرك بكلّ ما تريدين معرفته .

وبعد أن كشف « أوليس » عن هُويّته : عن اسمه ، واسم والده ، وبلده ، أخذ يسرد على الحضور قصّته من البداية ، أي منذ حرب « طروادة » ، ومروره بجميع المخاطر التي كابد في عرض البحر ، إلى أن قذفته الأمواج أخيراً على ساحلهم ونجاته بفضل الفتاة الرحيمة النبيلة « نوزيكا » التي أعطته هذه الثياب ...

إستمع الحضور بشغف وذهول لمغامرات « أوليس » ، والأهوال التي عانى من الآلهة والبشر وعناصر الطبيعة . فقال له الملك « إلسينوس » بعد انتهاء قصّته :

ـ كنت أتمنّى من كلّ قلبي ، بعد كلّ الذي سمعته منك عنك ، أن أهبك ابنتي زوجاً لك ، وأعطيك منزلاً لسُكْناك ، فضلاً عن خيرات أخرى كثيرة ، فتسمّى هكذا صهري ، وتبقى في جواري تتمتّع بكلّ ما يتمتّع به المواطن الفياسيّ ، لولا حنينك إلى وطنك وزوجك وولدك ، هذا الحنين الذي لا يضاهيه آخر . لذلك أطمئنك بأنّك ستعود سالماً معافى إلى

وطنك . سيتولّى رجالي نقلك إليه حتى لو كان في أقصى المعمور ، لتتأكّد بنفسك أنّ سفني هي أفضل السفن في الأرض ، وأنّ ما من بحّارة يفوقون بحّارتي بتحريك البحر بمجاذيفهم .

سرّ « أوليس » بأقوال الملك سروراً عظيماً ، ونام تلك الليلةَ على فراش ملكيّ وهو يحلم أحلام الملوك السعداء .

فولكلور وألعاب رياضيّة

في صباح اليوم التالي أنزلت إلى البحر سفينة سوداء تبحر للمرّة الأولى ، لتحمل « أوليس » إلى وطنه . واختِير لمرافقته خمسون من أمهر البحّارة . ثم نُحرت اثنتا عشرة نعجة ، وثوران ، وأعدّت وليمة فاخرة احتفالاً بوَداع « أوليس » .

ولمّا أشبع المدعوّون جوعهم ، وأرووا عطشهم ، جيء بمُنشد أعمى اشتهر بعذوبة غنائه ، فاطربهم باغانٍ مؤثّرة يدور موضوعها على حرب « طروادة » . فلم يتمالك « أوليس » ، لدى سماعها ، من تغطية رأسه بمعطفه كي لا يراه الفياسيّون ، وأرسل العنان لدموعه . الملك « إلسينوس » وحدَه لاحظ ذلك ، لأنّه كان قاعداً بجنبه يسمع تنهّداته . فامر

بإيقاف العزف والنشيد ، والبدء بالألعاب الرياضيّة ، حتى إذا ما عـاد ضيفهم الكريم إلى وطنه أخبر عن براعـة الفياسيّين بالملاكمـة ، والمصارعـة ، والقفز ، والجري ، ورمي القرص ، وقذف الجريد ، وغيرها .

فتوقّف المنشد الأعمى عن الغناء ، وعلّق قيثارته ، وبارح المكان يمسك بيده أحدُ الحضور . ثم توجّه الجمع إلى ساحة المدينة الكبرى حيث نزَل إلى الحلبة أقوى الأبطال وأشهرُهم ، وكانوا كثيرين ، وأسماؤهم كلُّها مشتقّة من الملاحـة التي مهروا بها ، ولذلك عُرفوا لدى الجميع « باصدقاء المجْذاف »

بدأوا أوّلاً بالجري الطويل . فانطلق المتبارون باقصى سرعتهم في السهل الفسيح ، يتطاير الغبـار وراءهم . ثم تبارَوا في المصارعـة ، والقفز ، ورمي القرص . ولم يثبت واحدٌ أمام البطل « لاوداماس » ، ابن الملك « إلسينوس » ، في الملاكمة التي كان سيّدها من غير منازع .

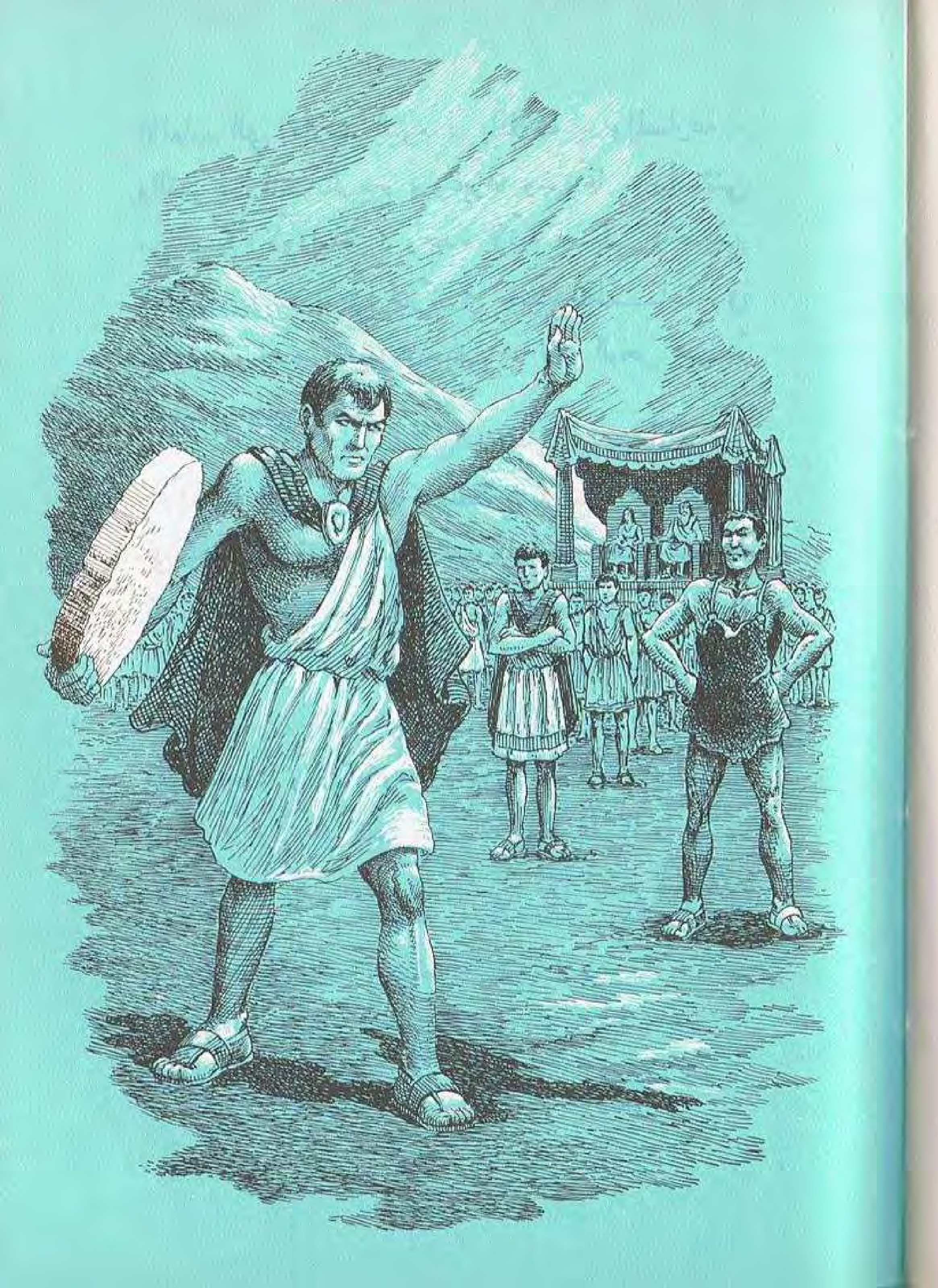
وهكذا امتلأت قلوب المشاهدين غبطـة وحبوراً بهذه الألعاب الجميلة . ومـا أن أوشكت على نهايتها حتى وقف « لاوداماس » وخطب في الحضور :

ـ والآن أيُّها الأصدقاء ، تعالَوا ندعو ضيفنـا « أوليس » لمنازلة أبطالنا في إحـدى هذه الألعاب ، لأنّـه ، ولا ريب ، قد تمرَّس بها ومهر . فإنَّ كلّ ما فيه يُنبىء بالقـوّة والشباب وينمّ عن الرجـولة الكاملة . إنّه ليمتلك عزم الشباب وبأسَه بالرغم من الآلام التي كابد ، والمحن الكثيرة التي ابتُـلي بها .

غير أنّ « أوليس » اعتذر قائلاً إنَّ قلبه مهموم بأشياء أخرى غير الألعاب الرياضيّـة ، وإنّ كلّ ما يرجوه من والده الملك « إلسينوس » هو أن يدبّـر أمر عودته إلى وطنه .

وهنا قـام المصارع « يوريال » يسخر من تردُّد « أوليس » ويتّـهمه بالجبن :

ـ الحقيقة أيُّها الغريب ، لا يبدو أنّـك خبـير



بفنون الرجال ، وإنّما مكانك في سفينة قرصان اعتاد أن يلقي أوامره لهذا وذاك ، ليس غير . وإنّك لا تملك شيئاً من صفات الأبطال ، بالرغم من مظهرك الخدّاع .

فأجابه « أوليس » الحذِر ، وهو يرمقه بنظرة احتقار من تحت حاجبيه :

ـ أسأتَ القول يا مضيفي . إنّك لجميل حقاً ، ولكنّ رأسك فارغٌ كالطَّبل ، ومع ذلك فقد أحسنتَ إثارتي ، وسوف أجرّب حظّي في هذه الألعاب رغم جميع ما قاسيت .

ونهض « أوليس » واقفاً . ومن غير أن ينزع معطفه تناول قرصاً حجريّاً يفوق بحجمه وثقله جميعَ الأقراص التي تبارَوا بها ، وقذفه بيده القويّة ؛ فصفر القرص وهو يطير في الهواء حتى نكست الرؤوس لدى مروره الخاطف ، وأحدث حفرة كبيرة تبعد كثيراً عن الحفر الصغيرة التي أحدثتها الأقراص الأخرى . ثم التفت « أوليس » إلى القوم وخاطبهم :

ـ إنّي مستعدٌّ أن أبارزكم جميعاً ، وبجميع

الألعاب التي مارستم اليوم : بالملاكمة ، والمصارعة ، والقفز ، وقذف الرمح ، وغيرها وغيرها ، وأستثني من بينكم « لاوداماس » وحدَه لأنّه صديقي ومضيفي الكريم . بلى ، إنّني مبرّز في جميع الألعاب . في الجري وحدَه تقدرون سبقي ، لأنّ البحر هدّ حيلي وحطّم أعصابي .

وهنا قام « يوريال » المصارع فاعتذر « لأوليس » على إهانته ، وقدّم له سيفه البرونزيّ ذا القبضة الفضيّة كهديّة ، للدلالة على حُسن ضيافته . فقبل « أوليس » الهديّة شاكراً . ثم انهالت عليه الهدايا من اثني عَشَرَ ملكاً يحكمون بلاد الفياسيّين ، فقدّم له كلّ واحد منهم معطفاً وجلباباً وصرّة من الذهب . وأعطته الملكة « أرتي » كاساً ذهبيّة ليذكرها كلّما شرب منها ، فضلاً عن صندوق خشبيّ ثمين ليضع فيه الهدايا التي قُدّمت له .

العَودَة الى "إيثاكا"

ولمّا حان موعد سفر « أوليس » إلى وطنه ، ودّع الملك « إلسينوس » وزوجه « أرتي » شاكراً إيّاهما على حسن ضيافتهما ، وصعد إلى سفينته التي كانت قد سبقته إليها جميعُ الهدايا التي أُغدقت عليه ، والمؤن الكافية للرحلة .

كان أوّل شيء قام به « أوليس » عندما اعتلى متن السفينة أنْ توجّه إلى السرير الوثير الذي أُعدّ له خصّيصاً ، وغرق في نوم طويل . وراحت السفينة السوداء التي تحمله تفري صفحة اليمّ الزرقاء ، والموج عن يمينها ويسارها يغلي ويزبد . وكانت تسير سريعةً رشيقة ، لا يستطيع حتى الصقر ، الذي هو أسرع الطيور ، اللحاق بها ، و« أوليس » مستسلم

لنومه وقد نسي كلَّ عذابه ومحنه .

وفي الساعة التي انبثقت فيها نجمــة الصباح التي تبشّر ببزوغ الفجر ، كانت السفينة السوداء تقترب رويداً رويداً من الجزيرة ، جزيرة « إيثاكا » الصخرية ، موطن « أوليس » الغالي ! ثمّةَ ، في أرض « إيثاكا » ، مرفأ أمين يحميه من الرياح العاتية جداران شامخان من الصخور . وعلى مدخل هذا المرفأ تنتصب ، بإعياء ، شجرةُ زيتون هرمة تمدّ أغصانها الوارفة . وعلى مقربة منها مغارةٌ معتمة تسكنها حوريّات البحر . ويشاهَد هنالك كذلك فوّهــاتُ براكين ، وقواريرُ حجريّة تعقد فيها جماعاتُ النَّحْل عَسَلَها ، وأنوالٌ حجريّة تنسج عليها الحوريّات أنسجة البرفير والأرجوان التي هي بهجـة النظر . هذا فضلاً عن ينابيع لا تنضب مياهها .

دخلت سفينة الفياسيّين السريعة ، التي تحمــل « أوليس » ، إلى المرفا ، وجنحت إلى الساحل الرمليّ حيث الماء رقيق ضَحْلٌ ، وأنزل بحّارتُها « أوليس » ،

الذي كان مـا يزال نائمــاً ، ووضعوه برِفق على الشاطىء ، ووضعوا إلى جانبــه الهدايا الكثيرة التي وهبوه إيّاها . بلصق شجرة الزيتون الظليلة وضعوا هدايا « أوليس » لئلاّ يتعثّر بها أحـد المارّة ويعبث بها ، وعادوا أدراجهم من حيث أتوا .

إستيقظ « أوليس » من نومه على أرض آبائــه ، ولكنّــه لم يعرفها بعد غيبته الطويلة عنها ، لأنّ الربّة « أثينا » كانت قــد وشّحتها بالضباب . كانت الربّة تريد أن يبقى « أوليس » مجهولاً ، لا يعرف بوجوده أحدٌ ، ليعرف كيف يتخلّص من خصومه . ولذلك بدا له كلّ شيء غريباً حوله : الشّعاب الطويلة ، والخلجان الآمنة ، والصخور العاليــة ، والأشجار الكثيفة .

نهض بقفزة ، وأخــذ يتأمّل أرض الوطن . وزفر بعمق ، وقال متنهّداً :

ـ ألويل لي ! في أيّ بلد أنا ؟ لقــد خدعني

الفياسيّون الذين ساقوني إلى هذه الأرض المجهولة ، مع أنّهم وعدوني بإيصالي إلى وطني « إيثاكا » !

وبعد أن ألقى نظرة على الأشياء من حوله راح يذرع الساحل وهو يبكي وطنه . فتقدّمت منه الربّة « أثينا » بهيأة راعٍ فتىً ، عليه سيماء أبناء الأمراء ، بيده عصا ، وقد ألقى على كتفه دِثاره ، وانتعل حذاءً لمّاعاً .

سُرّ « أوليس » للقاء الراعي وابتدره قائلا :

ـ مرحباً أيّها الصديق ! أنت أوّل إنسان أصادفه في هذا البلد ، لذلك أرجوك أن تنقذني وتنقذ مقتنياتي هذه . ولكنْ أستحلفك أوّلاً ، قل لي ما هذه الأرض ، ومَن شعبها ؟

ـ مجنونٌ أنت أيُّها الغريب ، أجابته « أثينا » ، إذا كنت حقّاً تسأل عن هذه الأرض ، لأنّ الجميع يعرفونها . صحيح أنّها أرض صخريّة لا تصلح لسباق الخيل ، ولكنّها ، على صغرها ، ليست فقيرة إلى هذا الحدّ . إنّها غنيّة بالقمح ، وتنتج الخمر ، ولا تنقطع عنها الأمطار ولا الندى الغزير . وهي حاضنة المعز والأبقار ، وفيها ضروب الأشجار العطريّة ، والأحواض المليئة بالماء طوال السنة . هذه الأرض ، أيُّها الغريب ، بلغ صيتها حتى « طروادة » ، هذه الأرض تدعى « إيثاكا » .

كان فرح « أوليس » عظيماً لدى سماعه هذا ، ولكنّه كبت مشاعره ، ولم يشأ أن يصدّق الراعي ، لأنّ الضباب كان ما يزال يحجب طبيعة بلاده . فقال متجاهلا :

ـ بلى ، سمعت بهذا البلد مِن خلف البحار . غيرَ أنّ السفينة التي استأجرتُ ، وبحّارتُها كلُّهم من الفياسيّين ، جنحت بنا ، في أثناء الليل ، إلى هذا المكان . فنمنا على الساحل من غير أن نتعشّى . ولمّا استيقظت كان صَحبي قد نسوني ويمّموا شطر « صيدون » ، المدينة العظيمة التي تغصّ بالسكّان . والآن لا أدري ماذا أفعل بكلّ هذه الأشياء الثمينة التي أحمل ؟

عندئذ ظهرت له الربّة « أثينا » بشكل فتاة رشيقة فاتنة ، وابتسمت له وقالت :

ـ منافقٌ أنت يا « أوليس » ، يا صاحب الألف حيلة! حتى وأنت على أرضك لا تكفّ عن الخداع وتلفيق الروايات الكاذبة . متى تضع حدّاً لخزعبلاتك العزيزة على قلبك ؟ تعالَ نتصارح الآن . فكما أنّك بين الناس طرّاً أفضلهم بإسداء النصح والقول السديد ، كذلك أنا بين الآلهة . ومع ذلك لم تعرفني بعد : أنا الربّة « أثينا » التي أنقذتك من المحن والمخاطر التي أحاطت بك.

ـ أنّى لي أن أعرفك أيّتها الربّة مهما أُوتيتُ من حِذق ، طالما تتشكّلين في كلّ لحظة بشكل وتتنكّرين بزيّ ؟ أستحلفك بوالدك أن تُصدقيني القول: هل أنا حقّاً في أرض آبائي وأجدادي ؟

ـ أنت حقّاً فيها .

قالت الربّة هذا وأزاحت الضباب الذي كان يغطّي الجزيرة ، فبانت لعين « أوليس » جميعُ معالم

الأرض الحبيبة: المرفأ الأمين، وشجرة الزيتون الظليلة على مدخله ، وغار الحوريّات ، والجبل الموشّح بالشجر . فانتظمته غبطةٌ طاغية وهو يكحّل عينه بجمالات وطنه . وأكبّ على الأرض يقبّلها ويسقيها بدموعه !

وقالت له الربّة « أثينا » بعد أن أمسكت بذراعه وأنهضته عن الأرض :

ـ بما يخصّ الهدايا الثمينة التي أعطاك الفياسيّون تستطيع أن تخبّئها في هذا الغار لوقت الحاجة ، لأنّ محناً وتجارب أخرى تنتظرك في عُقر دارك . تحلّ بالصبر ، وتحمّل آلامك بصمت ، وإيّاك أن تعرّف نفسك لأيّ كائن كان . يجب أن لا يعلم أحد بعودتك ، ولذلك سأتكفّل الآن بتغيير شكلك حتى لا يعرفك أقرباؤك وأعداؤك على السواء ...

ـ قولي لي أيّتها الربّة ، ما الذي يجري في بيتي على الوجه الصحيح ؟ إنّي أتحرّق لمعرفة ذلك . هل زوجي ...

ـ زوجك باقية على العهد ، وهي تبكيك ليلَ نهارَ ، حتى أحالها الحزن إلى خيال . والأمرُ والأدهى أنّ ثلاث سنين قد مرّت وطلابُ يدها لا يبارحون قصرك ، وهم يأكلون فيه ويشربون من خيراتك ، ويقدّمون لها الهدايا . أمّا هي فتعلّلهم بالوعود والآمال الكاذبة ، وتنتظرك دوماً شاكية باكية .

ـ رُحْماكِ ! دُلّيني على طريقة أنتقم بها منهم ، وابقَي إلى جنبي تبثّين في قلبي العزمَ كما في أيّام « طروادة » ، فأنا مستعدٌّ حينئذ أن أتحدّى جيشاً من المحاربين .

ـ لا عليكَ ! لن أتخلّى عنك ! والآن ساعدني لنقل أشيائك إلى المغارة .

وبعد أن نقل الاثنان تلك الهدايا إلى المغارة المقدّسة لمست « أثينا » « أوليس » بعصاها السحريّة ، فانقلبت في الحال هيئتُه كلُّها رأساً على عَقِب : فتغضّن جلدُه كجلد الشيوخ ، وتبعثر شعره أبيضَ

أغبرَ على كتفيه المُحدودبتَين، وباخ لمعانُ عينيه المتالّق. ورأى نفسه يلبس ، بدل المعطف والجلباب الجميلين ، ثوباً متّسخاً بالياً ، وجلدَ غزال مهلهلاً ، ويتعكّز على عصا ، وقد علّق في كتفه كيساً مثقوباً كأكياس الفقراء . ونصحَتْه بأن يذهب توّاً إلى « أوميه » ، راعي خنازيرهمْ الأمين ، لأنّه ، هو أيضاً ، باقٍ على العهد ، يكنّ له حبّاً صادقاً ، ويحفظ الودَّ لأهل بيته . ثم اختفت عن أنظاره .

لقاءُ الصديقين

برح « أوليس » الساحل وهو على هذه الحالة ، وأمعن في التَّصعيد في شِعب كثير الحَصى ، تترامى عن يمينه ويساره الغاباتُ الرائعة ، حتى وصل إلى « صخرة الغراب » ، حيث اعتاد راعيهم أن يرعى قطيعه بالقرب من النبع ذي المياه السوداء . فوجده جالساً على مدخل كوخه المشرف ، وهو منهمك بصنع حذاء من جلد البقر يقيسه على رجله .

كان « أوليس » هو الذي بنى بنفسه هذا الكوخَ ، وأحاطه بسور شاهق ، وجعل فيه اثنتَي عَشْرَةَ حظيرةً تضمُّ كلُّ واحدة أربعين خنزيرةً ، لأنّ الذكور كانت تبقى في الخارج . وكان رعيان آخرون ، عدا

العجوز « أوميه » ، يُعنون بهذا القطيع الكبير ويرعونه .

وفجاة نبحت الكلاب لمّا رأت « أوليس » ، واندفعت نحوه . فما كان منه إلاّ أن اقتعد الأرضَ ، وأفلت من يده عصاه ، لكي يتجنَّب شرّها . فهرع الراعي وانتهرها ، وراح يمطرها بالحجارة حتى تفرّقت هنا وهناك ، ودعا « أوليس » إلى دخول الكوخ ليتناولَ الطعام والشراب ، فأجلسه على كومة من قشّ مغطّاةٍ بجلد . ثم سارع إلى شدّ جلبابه وحزامه ، وخرج إلى حيث تُزرب قطعان الخنازير ، فاختار من بينها اثنين وذبحها ، وقطّعها أجزاء ، وقدّمها « لأوليس » مَشويَّةً ، بعد أن ذرَّ عليها دقيقاً أبيض ، ثم قعد بإزائه . فشكره « أوليس » على حسن الضيافة .

وعندئذٍ أجابه الراعي « أوميه » :

– إنّنا لا نُعْدَمَ الرحمةَ حيال ضيوفنا .

ثم مسح بكمّه عينيه ، وتابع ، والكلمات يغصّ بها حلقُه :

ـ إنّي أبــكي كلَّ يوم سيِّدي ، لأنّي أسمّـن خنازيره ليأكلها أناسٌ ظالمون ، بينما هو يتيــه في الأصقاع شريداً جائعاً ، هذا إذا كان على قيد الحياة .

ثم راح الراعي « أوميه » يروي قصّة سيّـده منذ ترك المنزل وذهب ليحــارب « طروادة » ، وكيف انقطعت أخباره عن أهله منذ ذلك الحين .

كان « أوليس » يستمع إلى أقوال الراعي من غير أن يَنْبِسِ بكلمة ، لأنّـه كان ، في سرّه ، يفكّـر بالانتقام من أولئك الطفيليّـين المغرورين . ولمّا أشبع جوعه قدَّم له الراعي كاساً مُترَعــة من النبيذ ، جرعها « أوليس » دفعة واحدة وقال له :

ـ لم تقل لي أيُّـهــا الراعي من يكون سيِّدك هذا ؟ لعلّـي أعرفه ، لأنّـي جوّابةُ آفاقٍ ، فقد أكون صادفته في إحدى رحلاتي .

ـ يا ليت أيُّهــا الشيخ . كثيرون قبلك ادَّعوا أنّـهم عرفوه ، أو رأوه ، وأقبلوا يبشّـرون سيِّدتي

علّـهم يحظون منها بمكافأة . وقد يكون هذا قصدك أنت أيضاً . كلاّ أيّـها الغريب ، فسيِّـدي ضاع إلى الأبد . وقـــد تكون وحوش البـرّ أو طير السماء انتزعت جلده عن لحمه . وربّما التهمته أسماك البحر فابيضّت عظامه الآن على أحد السواحل المهجورة

فقال « أوليس » :

ـ أيُّها الصديق ، ساكذّب هذه المرّة ظنَّـك . إنَّـني أؤكّـد لك أنَّ « أوليس » سيعود قريباً ، وعندئذ ستقدّم لي ثياباً فاخرة ، لأنّ الأسمــــال التي أرتدي زريّةٌ حقيرة كما تلاحظ . وإنّـني أستشهد الآلهة بأنّ « أوليس » سيرجع إلى بيته هـذه السنة ، لا بل في نهاية هـذا الشهر ، وينتقم للعار الذي ألحق بزوجه وولده .

حينئذ تقـــدّم الراعي « أوميه » من « أوليس » وأمسكه من كتفه ، وسأله :

ـ من تكون يا هذا ، ومن أين أنت قادم ، وعلى متن أيّ مركب ؟

فراح « أوليس » من جديد يلفّق ، على سائد عادته ، قصّةً من نسج خياله الخصب ، فأخبره بأنّه من سكّان جزيرة « كريت » ، وأنّه كان يهوى المغامرة والإبحار والحرب والمبارزة . ولذلك التحق بالآخيّين ، وحارب « طروادة » طوال تسع سنين ، حتى دمّروها في العاشرة وسلبوا خيراتها . ثم عاد غانماً إلى وطنه ، ومكث فيه شهراً واحداً فحسب ، لأنّ شوق السفر استبدّ به ثانيةً ، فأبحر هذه المرّة إلى « مصر » حيث مكث سنين . ومن « مصر » أبحر إلى « فينيقيا » ثم إلى « ليبيا » ، وفي طريق العودة إلى وطنه حطّمت العاصفة مركبه وقذفته على ساحل الفياسيّين الذين أنقذوه وأوصلوه إلى « إيثاكا » .

إنطلت رواية « أوليس » على « أوميه » الذي طمأنه بأنّ ولد سيّده سيأتي قريباً إلى هذا المكان ويهديه ثياباً جديدة ، ويقوده إلى حيث يشاء . ثم أعدّ « لأوليس » سريراً قرب النار ألقى فوقه جلود الغنم والمعز ، لأنّ المطر كان قد بدأ يتساقط ، والبرد

يَقْرِس . أمّا هو فتزمّل بمعطف كثيف فضفاض ، وتقلّد سيفه ، وخرج لينام قرب الحظائر ليؤمّن حراستها في الليل . فسرّ « أوليس » لهمّة راعيه ويقظته ، لأنّه ما فتىء يقوم بواجبه خيرَ قيام ، حتى في أثناء غيابه . واستسلم إلى نوم هنيء عميق .

لقاءُ الأبِ والابنِ

أيقظت الربّة « أثينا » « تيليماك » المسترسلَ في أحلامه ، وحثّته على الإسراع إلى كـوخ الراعي « أوميه » لأنّـه سيجد في ضيافته شيخاً غريباً قـد يزوّده باخبار عن والده . فطار « تيليماك » من الفرح ، وارتدى ثيابــه على عجلة ، وانتعل حذاءه بسرعة ، وانطلق إلى كوخهم المشرف على البحر .

وفي الكوخ كان « أوليس » يتناول طعامــه مع الراعي « أوميه » ، فقال « أوليس » :

ـ بودّي يا « أوميه » أن أذهب إلى قصر « أوليس » لأبشّر زوجه « بينيلوب » بعــودة زوجها القريبة ، وليتسنّى لي بذلك أن أختلطَ بطلاّب يدها من غير أن أثير فضولهم ، فيحسنوا إليّ بدورهم . مع العلم

أنّني طاهٍ ماهر ، ومديرُ منزل من الطراز الأوّل . فبميسوري أن أحتطب ، وأضرم النــار ، وأقدّم الشراب والطعام ، وأنحر النعاج وأشوي لحومها ...

فقاطعه « أوميه » حانقاً مغتاظاً :

ـ ويحَك ! كيف تخطر ببالـك أفكارٌ كهذه ؟ أمعجّل أنت على موتك ؟ ألا تعرف أنّ عنجهيّـة طالبي يد سيّدتي ووحشيّتهم بلغتا السماء ؟ ثم كيف يرضون في خدمتهم عجوزاً متهدّماً مثلك ، في حين يخدمهم فتيان كالأقمار بثياب زاهية ؟

وأحبّ « أوليس » أن يغيّر الموضوع ، فقال :

ـ على فكرة أيّهــا الراعي ، إنّك لم تخبرني عن والدة « أوليس » ووالده ، هل همــا بعدُ على قيد الحياة ، أم أنّهما صارا في العالم الثاني من زمان ؟

ـ ألوالد « لايرت » حيٌّ يُرزَق ، غير أنّه ، من فرط حزنه على ولده ، وعلى زوجه التي بموتها آلمته كثيراً ، يطلب كلّ يوم أن يموت هو أيضاً ويرتاح .

وهنا سمع نباح الكلاب للحظات ، ثم سكتت فجأة . كانت قد رأت « تيليماك » يدخل المكانَ فهرعت للقائه وهي تنزنز له بأذنابها . فقال « أوليس » الذي لمح الزائر من مكانه والكلاب تتحلّقه :

– أعتقد أنّ القادم صديق لك يا « أوميه » ، أو أحد عارفيك ، لأنّ الكلاب كفّت عن النباح حالما رأته . وها هي تلاعبه فرحةً بلقائه .

وما أتمّ كلامه حتى ظهر « تيليماك » في إطار الباب ، بقامته الفارعة . وهرول الراعي لاستقباله ، وانهال على سيّده يقبّله في جبينه وعينيه ويديه بشوق أب لابنه ، ودموعه تنهمل على وجهه .

دخل « تيليماك » الكوخَ ، فنهض « أوليس » ليقدّم له مقعده ، فأوقفه الشابُّ بإشارة من يده وهو يقول :

– كلاّ ، اجلس حيث أنت أيّها الغريب . بإمكاني أن أجد مقعداً آخر .

في هذه الأثناء كان الراعي « أوميه » قد هيّأ « لتيليماك » كومة من الأغصان الخضراء ألقى فوقها بعض الجلود ليجلس عليها . ثم أحضر له شِواءً وخبزاً ، وقعد قبالةَ « أوليس » .

ولمّا فرغ الثلاثة من تناول طعامهم قال « تيليماك » « لأوميه » :

– أبَتي الصغير ، من أين غريبنا قادم ، وكيف قاده البحّارة إلى « إيثاكا » ؟ لا أخاله قدم إلينا ماشياً !

– يزعم أنّه قادم من جزيرة « كريت » بعد أن مرّ في سفره بمدن كثيرة . وها إنّي أضع مصيره بين يديك .

– كيف تريدني يا « أوميه » أن أحويه في بيتي بعد أن احتلّه الآخرون ؟ وكيف أدافع عنه وحدي ضدّهم جميعاً ؟ حتى بي أنا ضاقَ بيتي كما تعرف . ثم انّني لا أدري إذا كانت أمّي في المستقبل

ستمكث معي في المنزل ، أم تتركني وتتركه إلى غير رجعة . ولكن ، ما دام هذا الغريب قد حلّ ضيفاً عليك ، ساتدبّر أمره : ساكسوه ، وأسلّحه بسيف ذي حدّين ، وأقوده إلى حيث يشاء .

حينئذٍ ابتدر « أوليس » « تيلياك » :

ـ أيُّها الصديق ! إنّ مـا يُحاك في قصرك من أحابيلَ ليحزّ في قلبي ويدميه . ولكنْ قل لي : هل هذه العبوديّة التي تتألّم منها هي برضاك ، أم انّ شعب هذا البلد ينبذك ويحتقرك ؟ آه ! إنّني لا أُعدَم الشجاعةَ ، ولكن من أين لي شبابك الريّان ؟ ليتني كنت ابن « أوليس » ، أو « أوليس » بالذات العائد من غربته ، إذن لكنت عرفت كيف أدبّر أمر مُهينيك وناهبي بيتك . ومع ذلك لا تيأس أيُّها الفتى ، فالأمل كلّه لم يُفقد بعدُ .

ـ أيُّها الضيف الكريم ، ساقول لك الحقيقة . لا ! إنّ شعبي كلّه لا ينبذني . ولكنْ ماذا في وسعي أن

أفعل ؟ إنّ « لايرت » لم يُنجب سوى « أوليس » واحد ، و « أوليس » لم ينجب بدوره سواي . ولذلك تألّبتْ عليَّ طغمةٌ من الأعداء . إنّ كلَّ زعماء جزرنا ، وكلَّ أمراء « إيثاكا » ، يتنافسون على الزواج بأمّي ، وينهبون مالي . كيف تريدني أن أجابههم وحدي ؟

وهنا انتعل الراعي « أوميه » حذاءه وخرج إلى المدينة ليتبضّع . وما ان ابتعد قليلاً عن الكوخ حتى وقفت الربّة « أثينا » في باب الكوخ ، متنكّرةً بزيّ امرأة جميلة طويلة . فلم يرَها سوى « أوليس » ، لأنّها شاءت أن تظهر له وحدَه ، وللكلاب أيضاً ، ولكنَّ هذه لم تَقْوَ على النباح لخوفها ، فلاذت بالفرار وهي تهرّ . وأومأت « أثينا » إلى « أوليس » بإشارةٍ من حاجبَيها فهم معناها ، وبرح الكوخ . ولمّا صار خارج السور وقف أمامها فقالت له :

ـ يا ابن « لايرت » ، لقد حان الوقتُ لتصارح ولدك وتكشف له كلَّ شيء . أوقفه على خطّتك ،

وأفهمه كيف ينبغي أن يتعاون معك لقهر الخصوم . لن أكون بعيداً عنكما ، لأنّني أتحرّق شوقاً لإعلان القتال .

ثم مسّت « أثينا » « أوليس » بعصاها الذهبيّة ، فإذا هو يلبس معطفاً وجلباباً نظيفين . ومنحته قامة أطول وشباباً أوفر ، فعادت إلى بَشَرتِه سُمْرَتُها الفاتنة ، وامتلأ خدّاه ، ونبتت له لحيةٌ سوداءُ جميلة . ثمّ اختفت .

ودخل « أوليس » الكوخ بكامل رجولته ، ومهابته ، وجماله . فدهش « تيلياك » لرؤيته ، وخاف خوفاً شديداً .

فسارع « أوليس » يطمئن ولده :

ـ أنا « أوليس » ، أبوك الذي طالما بكيتَه ، وقاسيتَ من أجله الآلامَ والأهوال .

وأكبّ على ولده يعانقه ، ويقبّله ، ويبكي .

أجابه « تيلياك » الذي لم يكن إلى ذلك الحين يصدّق أنّه والده :

ـ كلاّ ! لست أبي « أوليس » ! إنّما هذه حيلة أخرى من حيل الآلهة تزيد بها حرقتي وآلامي . لأنّك ، منذ لحظة ، كنت شيخاً متهدّماً وبالأسمال ، والآن قد تغيّر كلّ ما بك .

فقال « أوليس » :

ـ لا يليق بك يا « تيلياك » أن ينتظمك الخوفُ إلى هذا الحدّ ، بينما والدك واقف أمامك . لا ! لن يحضر إلى هذا المكان « أوليس » آخر . « فأوليس » هو هذا الذي تراه ، أنا هو القادم إلى أرض آبائي بعد عشرين عاماً أمضيتها في الغربة . أمّا التحوّل الذي رأيتَه فيّ فإنّما كان بقدرة الرّبة « أثينا » ، لأنّه ما من شيء يستحيل عليها .

قال « أوليس » هذا وقعد . فأسرع إليه « تيلياك » وأحاطه بذراعيه ، وراح ينحب وينشج . وبكى الاثنان بكاءً مرّاً ، صائتاً ، كما تصيت الطيور الجارحة حين يسلبها الرعاة فِراخها . ولم يكونا لينقطعا عن

البكاء حتى مغيب الشمس لو لم يفاجىء « تيلياك » والده بهذا السؤال :

ـ ولكنْ أبي الحبيب ، على ظهر أيّ مركب أتيت إلى « إيثاكا » ؟

وأخبره « أوليس » بأنّ الفياسيّين هم الذين أتوا به على سفينتهم السريعة ، بعد أن أغدقوا عليه الهدايا الثمينة التي هي الآن مخبّأة في مكان أمين ، ولم يبقَ أمامها الآن سوى أمرٍ واحد ، هو معاقبة أعداء بيتهم .

فقال « تيلياك » :

ـ بالحقيقة يا أبي ، سمعت الكثير عن مآثرك وبطولاتك . فالكلُّ يمتدحون مجدك العظيم ، وقدرتك الفائقة في القتال ، وحسن مشورتك . ولكنّك الآن مُقدم على خطر عظيم ، لأنّه يستحيل على اثنين أن يتحدّيا أعداءهما الكثيرين . فكّر مَليّاً يا أبي بإيجاد حلفاء لنا في هذا القتال غير المتكافىء .

ـ إسمع « تيلياك » ، سأسِرُّ إليك بخطّتي. إحفظها جيّداً بفكرك . إذهب إلى البيت في باكر الصباح ، وساير القوم كالعادة ، وأنا سأتبعك بعد حين متنكّراً بزيّ شحّاذ عجوز ... وقد أهان هناك ، وأضرب ، فإيّاك أن تأتي بحركة لتدافع عنّي . فقط تفرّج ، وتماسكْ ، واصبر . شيء آخر يا « تيلياك » : أسلحتي التي صدئت ، أنقلْها من الصالة الكبرى إلى الطابق العلويّ . وحذارِ أن تُعلم أحداً بوجودي بينكم ، لا تُعلِمْ حتى جدّك ووالدتك ، هذا إذا كنت حقّاً ولدي ، من لحمي ودمي .

وافترق الاثنان على هذه الخطّة . وفي هذه الأثناء كان الطامعون بيد « بينيلوب » يعقدون اجتماعاً في منزلها ، ويتشاورون حول مصير « تيلياك » بعد زواج أمّه : هل يُبقونه في القصر أم يقضون عليه ، لأنّه بدأ يضايقهم في المدّة الأخيرة . فاقترح « أنتينوس » بأن يُقتل قبل أن يؤلّب عليهم الآخيّين ، وبأن يؤول القصرُ بعده إلى من يحظى بالزواج بأمّه.

وبلغ خبر المتآمرين « بينيلوب » ، فدخلت عليهم مع وصيفاتها وهي محجّبة، ووجّهت الكلام إلى «أنتينوس»:

ــ « أنتينوس » ، أيُّها الرجل المراوغ الماكر ! لقد أخطأ الناس حين نعتوك بالحكيم وبالفصيح . قل لي لماذا تريد قتل ولدي ؟ أنسيتَ أنّ ربَّ هذا البيت حمى والدك وأنقذه من موت أكيد ، يوم التجأ إليه هرباً من خصومه ؟

ثم تركت «بينيلوب» القاعة ، وصعدت إلى غرفتها وانخرطت في بكاء طويل

شحّاذ في قصر « أوليس »

كان طلاّب يد « بينيلوب » جالسين ، على سائد عادتهم ، في الصالة الكبرى ، يشربون ويأكلون ، حين دخل « تيلماك » ورمحه بيده ، يتبعه كلبان سريعان ، وقد أسبغت عليه الربّة « أثينا » جلالاً . وما إن مرّ أمامهم حتى راحوا كلُّهم يتأمّلونه بقلوب واجفة وعيون مبهورة . وقعد « تلماك » بعيداً عنهم ، حيث كان يجلس صديقان لوالده قديمان . أمّا أمّه فجلست قبالته من جهة الباب ، منحنيةً فوق عملها ، إذ كانت تغزل خيوطاً دقيقة .

كان « أوليس » وراعيه يقتربان من القصر في تلك الأثناء ، حين دغدغت خياشيمهما رائحةُ الشواء العابقةُ في الأرجاء . وتناهى إليهما صوتُ العزف على

القيثارة يواكبه هرج القوم ومرجهم . فوقف « أوليس » ، المتنكّر بزيّ شحّاذ ، وقال لـ « أوميه » :

ـ هذا ، ولا ريبَ ، قصر « أوليس » . من السهل تمييزُه من بقيّة المنازل بفخامته ، وسوره العالي ، وبوّابته الجميلة المتينة . ثم لَكأنّي بالقوم يُقيمون فيه طقوسَ عربدةٍ ومجون . هيّا اسبقني بالدخول ، سألحقك بعد قليل ، لأنّه لولا شراهتي التي تفضحني ، ما كنتُ أعرّض نفسي لسخرية القوم .

ودخل « أوميه » ، ثم تبعه بعد قليل « أوليس » .

كان ثمّة كلبٌ نائم ، ما إن تنسّم « أوليس » حتى رفع رأسه وأذنيه . كان ذاك كلبه « لاغوس » الذي طالما صحبه في صيد الأرانب والغِزلان والمعز البريّة . لكنّه ، بعد سفره ، ظلّ قابعاً أمام الباب لا يعنى به أحدٌ ، حتى هزل جسمه ورعت فيه البراغيث . وعرف الكلبُ صاحبَه بعد غيبة عشرين سنة ، ولكنّه عبثاً حاول الزحف صوبه ، لفرط ضعفه ، واكتفى بهزّ ذنبه . ثم ما لبث أن

أرخى رأسه وأذنيه ، ولفظ أنفاسه . ولم يتمالك « أوليس » حتى استدار ليمسح دمعة .

كان « تيلياك » أوّل من شاهد دخول الراعي ، فأومأ إليه بإشارة من رأسه بأن يتقدّم صوبه . فجلس « أوميه » قبالته . وبعد قليل دخل « أوليس » القاعةَ بهيئة شحّاذ عجوز زريّ المنظر ، واقتعد عتبة الباب . فتناول « تيلياك » سلّة ملأها بالخبز وقِطع اللحم ، وأعطاها الراعي ليقدّمها للشحّاذ . أخذ « أوميه » السلّة ووضعها لصقَ قدمَي « أوليس » بالقرب من كيسه الحقير .

وبينا القوم يصيحون ويصخبون ابتهاجاً بغناء المنشد ، تسلّلت الربّة « أثينا » إلى الصالة ، وتراءت « لأوليس » وحدَه وحثّته على النهوض لطلب الحَسَنة من الحضور ، ليتسنّى له بذلك تمييز الطيّب بينهم من الخبيث ، مع أنّ الربّة كانت ، في ذات نفسها ، تدبّر أمر هلاكهم جميعاً .

فقام « أوليس » بتثاقل ، ومشى نحوهم ، وهو

يمدُّ يده بادئاً بالذين على اليمين . بعضُهم منحه بسَخاء . وكلُّهم تساءلوا عمَّن يكون ، وعن بلده . فقال أحدهم ، وهو « ميلانتيوس » ، إنّه رآه مع الراعي « أوميه » وهما يدخلان المدينة ، ولكنّه يجهله ويجهل موطنه . ونحا « أنتينوس » باللائمة على الراعي « أوميه » لأنّه صار السبب في إدخال هذا المتسوِّل القذر إلى القصر ، وإفسادِ راحتهم .

فقال له « أوليس » ، وهو يراقبه ويَرُوزه من تحت حاجبَيه المقطّبين :

ـ الحسنة أيُّها النبيل ! لا يبدو أنّك أخبث الآخيين ، لأنّ عليك أمارات الملوك وسِيماهم . فهلاّ أعطيتَني لأمتدحَ فضلَك بين الناس ؟ لأنّي ، أنا أيضاً ، في غابر أيّامي ، كنت رجلاً ميسوراً أمتلك الخدم والحَشَم ، والرياش الفاخرة ، وقصراً مُنيفاً . وما كنت أردُّ متسوِّلاً يمدّ لي اليدَ ...

وهنا قاطعه « أنتينوس » بجفاء وغِلْظة :

ـ من أين جاءنا هذا الشحّاذُ القذر ؟ ألا ابتعدْ عنّي أيّها الوقح !

فادار له « أوليس » ظهره كالذي يرتدّ على أعقابه ، والتفت إليه قائلاً :

ـ أوّاه ! إذاً فباطنُك ، أيُّها السيِّد ، لا ينمّ عن ظاهرك ، لأنّك لم تتكرَّم عليّ حتى بقليل من الملح ، مع أنَّك ، كما علمت ، تعبّ الآن من طعام سواك !

كانت الإهانة فوق ما يتحمَّل « أنتينوس » ، فرشقه ، بقوّة ، بصحن كان في يده ، فأصاب كتفه اليُمنى فوق الظَّهر . غير أنّ « أوليس » ظلّ ثابتاً كالطَّود ، فلم يتزحزح قيدَ أنملة . ومن غير أن ينبس بكلمة هزَّ برأسه ، ودلف إلى مكانه ، فاقتعد العتبةَ بجوار جرابه المنتفخ بفُتات الخبز . ومن هناك خاطب الحضور :

ـ إسمعوا يا قومُ ، لقد أهانني السيِّد وضربني

أمامكم جميعا ، فإذا كان حقّاً ثمّةَ آلهةٌ تنتقم للمظلومين ، فإنّي أضرع إليها أن تقتصّ منه قبل أن يدرك يومَ عرسه !

فاحتدّ « أنتينوس » ، وقد خرج عن طوره ، وصرخ « باوليس » بأن يخرس . ولام بعضُ الحضور « أنتينوس » لإنّه تحامل على فقير مُعدِم . أمّا « تيلماك » فحزّ في قلبه أن يُضرب والده ويُهان أمامه ولا يستطيعَ أن يهبّ لنجدته ، غير أنّه تمالك ، وحبس دمعه ، لأنّه هكذا كان الاتّفاق بينه وبين والده .

وعلمت « بينيلوب » بأنّ المتسوّل العجوز قد ضُرب في بيتها وأهين ، وبأنّ المعتدي عليه هو « أنتينوس » ، فاهتاجت للنبإ أيّما اهتياج ، وأرسلت للراعي « أوميه » ليأتيها بجوّابة الآفاق الغريب هذا ، فلعلّه يعلم شيئاً عن زوجها « أوليس »

حِوَار "أوليسُ" وَ"بينيلوبُ"

كان الليل قد تقادم حين برح طالبو يد « بينيلوب » القصرَ . وقبل أن يذهب « تيلماك » إلى فراشه انفرد به والدُه وقال له :

ـ أنقلْ غداً أسلحتي الحربيّةَ كلّها إلى مكان أمين : الخُوَذ ، والأتراس المقوّسة ، والرّماح الحادّة ، وغيرها . لقد اسودّت أثناء غيابي بفعل الأبخرة والغبار ودخان المواقد . يومذاك كنتَ صغيراً يا ولدي ، فأحببتُ أن توضعَ تلك الأسلحة بعيدةً عن متناول يدك ، لأنّ السلاح جذاب ، وكثيراً ما يؤذي صاحبه . والآن اذهب إلى فراشك ، ونَمْ بسلام .

خرج « تيلماك » وبقي « أوليس » وحده في

القاعة الكبرى، يفكّر في انتقامه الرهيب. وهبطت «بينيلوب» السلامَ شبيهةً بإلاهة الجمال «أفروديت»، واقتعدت كرسيّها المرصّع بالعاج والفضّة قرب النار، حيث اعتادت أن تجلس دائماً. وأقبلت وصيفاتها والخادمات، وطفقن ينظّفن القاعة ويضرمن ناراً جديدة حامية لتدفّىء المكان وتنيره في الوقت نفسه. وحاولت إحدى الخادمات طرد «أوليس» المتنكّرَ بثياب شحّاذ، فانتهرتها «بينيلوب» على صفاقتها، وأمرتها بان تجلب في الحال كرسيّاً وتضعه قريباً منها، ليقعد عليه الغريب، لأنّها تريد أن تساله عن زوجها، فلعلّه يعرف شيئاً عنه.

ولمّا جلس «أوليس» على الكرسيّ سألته «بينيلوب»:

– أيُّها الغريب! أحبّ أن أوجّه إليك هذا السؤال: أوّلاً مَن تكون، ومن أين أنت قادم؟ ومَن ذوُوك؟

فاجابها «أوليس»:

– عن كلّ شيء اسأليني أيّتُها المرأة الفاضلة، إلاّ عن مولدي ومسقط رأسي، لئلاّ يضاعف تذكُّرُ الماضي آلامي وشجوني. وليس من اللّياقة أن يكدّرَ الضيفُ مضيفَه بشكواه ودموعه، وأن يزعجه بحكاية حاله.

ثم راح «أوليس»، بدافعٍ من إلحاحها لمعرفة هويّته، يلفّق قصّةً أخرى عن نفسه. فاخبرها بأنّه مُواطِنٌ من جزيرة «كريت»، وأنّ جدّه هو «مينوس» حاكم مدن «غنوسوس»... وأنّه في «كريت» ذاتها تعرّف إلى زوجها «أوليس» الذي كانت الرياح قد قذفته إلى ساحلهم وهو في طريقه إلى «طروادة». فاستضافه في قصره اثني عَشَرَ يوماً، حتى إذا هدأت الرياح، وسكن البحر، في اليوم الثالِثَ عَشَرَ، ترك الجزيرة بعد أن زوّده بكلّ ما يحتاجه.

وبينا «أوليس» ينمّق هذا الكلام، ويلفّق الروايات على طريقته، كانت «بينيلوب» تكفكف

دموعها وتتنهّد. حتى إذا توقّف سألته :

- أيّها الغريب ! أريد أن أمتحن صِدقك ، لأعرف مدى صحّة روايتك . فهلاّ أخبرتَني عن شكل زوجي وهيأته ، وعن نوع الثياب التي كان يرتدي يوم استضفتَه في قصرك ، ومَن كان رفقاؤه ؟

فردّ « أوليس » :

- إنّك تحرجين موقفي أيّتها السيّدة النبيلة ، لأنّه مضى على ذلك قرابة العشرين عاماً . ثم إنّني أصبحت رجلاً عجوزاً ... غير أنّني ، رغم ضعف الذاكرة ، ما أزال أحتفظ بصورته في خاطري ... لقد كان النبيل « أوليس » يرتدي ، فوق الجلباب اللّمّاع القرميديّ اللون ، معطفاً رائعاً ناعمَ اللّمْس ، نُقشت عليه صورةُ كلب يتململ بين مخالبه غزالٌ صغير مرقّط . والحيوانان مشغولان بخيوط ذهبيّة دقيقة . وإبزيم المعطف كذلك كان من ذهب . وكان « أوليس » يتالّق كالشمس في هذه الثياب الرائعة . ولكنّني لا أستطيع أن أجزم أنّ هذه الثياب كانت

له ، أو مُهداة إليه . أمّا أنا فاهديته وقتذاك سيفاً برونزيّاً ، ومعطفاً جميلاً ، وجلباباً طويلاً تلامس أطرافُه قدمَيه . شيء آخر أذكره تماماً . لقد كان بصحبته عرّاف يُدعى « يوريبات » ، يبدو أكبر سنّاً منه ، مُحدودب الظهر ، أسود البَشَرة ، له شعر أجعد .

تأثرت « بينيلوب » كثيراً لهذه الأقوال التي زادت من حاجتها إلى البكاء ، لأنّ الأوصاف التي ذكرها الغريب عن ضيفه كانت هي أوصاف زوجها « أوليس » .

وعاد الغريب يطمئنها :

- صدّقيني أنّ « أوليس » حيّ يُرزق ، وليس بعيداً عن هذا المكان وإنّه لقادمٌ إليكِ حاملاً هدايا وكنوزاً كثيرة أغدقها عليه الفياسيّون . في هذه السنة بالذات سيكون قدومه . سيطلّ عليك مع إطلالة الهلال الجديد

فرحت « بينيلوب » ، رغم يأسها وحزنها الشديد ، بكلام الغريب ، وإن كانت ، في قرارة نفسها ، تشكّ بصحّته ، لأنّها كانت قد قطعت كلَّ أمل ورجاء بعد غيابه الطويل . وأمرت وصيفاتِها بأن يُولِين الضيفَ العجوز العنايةَ التامّةَ ، ويهيّئن له جميع أسباب الراحة طوال إقامته عندهم .

وبينما كانت خادمة القصر المسنّة « يوريكليا » ، مربّية « أوليس » في صغره ، تقوم بغسل قدَميه ، لاحظت تحت ركبته أثرَ جرح . كان هذا الجرح قد أحدثته نابُ خنزير برّيّ طارده « أوليس » في شبابه ، فكرَّ عليه الحيوانُ وطعنه طعنةً نَجْلاء تحت الركبة ، غير أنّ « أوليس » عاد فأجهز عليه بأن سدَّد رمحه القاتل إلى كتفه اليمنى . وعرفت الخادمة سيِّدها في الحال ، ومِن فرط دهشتها وفرحتها تركت قدمه تسقط من يدها وتضرب الطبق النحاسيَّ تحتها . فطنّ الإناء للصدمة ، واندلقت مياهه على الأرض . فاغرورقت عينا العجوز بالدموع ، وسألته ،

وهي تداعب ذقنه بيدها ، وقد اختنق الصوت في حنجرتها :

ـ بلى ! أنت « أوليس » ، يا ولدي العزيز ، أليس كذلك ؟

والتفتت إلى « بينيلوب » الجالسةِ قريباً منها لتبشّرها بذلك ، غير أنّ الربّة « أثينا » حوّلت انتباه « بينيلوب » عن خادمتها . وتنبّه « أوليس » بدوره لحركة الخادمة ، فأمسكها بخناقها ونترها صوبه ، وقال لها هامساً :

ـ أيّتها العجوز الطيّبة ! لماذا تريدين أن تخسريني ؟ أنت التي ربّيتِني ، وحضنتِني ، وها أنّي أعود ثانيةً بعد عشرين سنةً أمضيتُها في الشقاء والعذاب . وبما أنّك عرفتِني الآن فحذارِ حذارِ أن تكشفي أمري لأيِّ كائنٍ كان في هذا المنزل ، لأنّي مُقدمٌ قريباً على الاقتصاص من ناهبي هذا البيت ومدنّسي حرمته . وسوف أقتلك بدورك ، رغم كونك حاضنتي ، إذا كشفتِ سرّي لأحد .

ولمّا فرغت مربّيته من غسل قدميه ، ووعدته بكتم السّرّ ، جلس « أوليس » قرب النار حيث كانت « بينيلوب » تغزل غزلها الدقيق . وبعد صمت قصير التفتت إليه « بينيلوب » وراحت تشكو له سوء حالها . ثم قصّت عليه حلماً رأته ، وطلبت إليه أن يفسّره لها :

ـ رأيت ، في ما يرى النائم ، وزّاتي العشرين في باحة القصر تنقد حبّات قمح مبلّلة بالماء ، وإذا نسرٌ عظيم ذو منقد معقوف ينقضّ من أعالي الجبل ، ويَقصِم رقابها ويقتلها جميعاً . ورأيت جثثها مكدّسةً على الأرض في هذا المنزل بالذات . ثم ارتفع النسر ثانيةً وحلّق في الأثير السماويّ . وبينا أنا أنحب وأبكي وزّاتي التي قتلها النسر ، والآخيّون الذين هرعوا على بكائي يتحلّقونني ، إذا النسر العظيم يعود ثانية ويحطّ على طرف السطح ويخاطبني بصوت إنسانيّ ، مُطَمْئناً وقائلاً : « هدّئي من روعك يا « بينيلوب » ! إنّ هذا الذي

رأيتِه ليس بالحلم ، وإنّما هو رؤيا أكيدةٌ لما سوف يصبح حقيقة . فالوزّات تمثّل طالبي يدك ، وأنا ، النسر ، أمثّل زوجك العائد ، وسوف أضرب بيد من حديد جميع هؤلاء المتطفّلين ، وأذيقهم موت الخزْي والعار .

« وأفقت من نومي ، وهرعت لأرى وزّاتي فوجدتها تنقد حبوب القمح قرب الدلو كعادتها » .

فأجابها « أوليس » :

ـ أيّتها المرأة ، معنى حلمك واضح ، وما من حاجة لإعطائه تفسيراً آخرَ . فالنسر ، كما قال لك في الحلم ، هو زوجك « أوليس » ، والوزّات أعداء بيته ، وسوف يبطش بهم بطشاً ذريعاً يُفنيهم عن بكرة أبيهم .

فقالت « بينيلوب » :

ـ شيءٌ آخرُ أريد أن أسرّه لك أيّها الضيف ،

فاحفظه جيداً في فكرك . في فجر الغد بالذات سأبلى بعصيبة كُبرى تُقصيني عن هذا المنزل الحبيب إلى الأبد . لأني أفكر بإجراء مباراة بين طلاب يدي ، الفائزُ فيها سيفوز بيدي أيضاً . لقد كان من عادة زوجي أن ينصب اثنتي عَشْرةَ فاساً في خطّ مستقيم كدعائم السفن ، ثم يقف على مسافة بعيدة عنها ويرشق سهمه الذي كان يمرق من خلال حلقاتها كلها من غير أن يمسّ واحدة منها . فمَن مِن طلاّب يدي يستطيع أن يلوي قوس زوجي « أوليس » ، ويقومَ بما كان يقوم به ، سأتبعه راغمةً ، مخلّفة ورائي ، إلى غير رجعة ، مسكن شبابي ، هذا المسكن الحبيب الذي لن أنساه أبداً ، وطالما فكّرت به حتى في أحلامي .

فشجّعها « أوليس » على إقامة هذه المباراة في أسرع وقت ، وطمأنها كذلك بأنّ زوجها سيكون في قصره قبل أن يتناول طالبو يدها قوسه ويطلقوا منها السهم

وصعدت « بينيلوب » إلى غرفتها لتنام ، بعد أن أوصت وصيفاتِها بأن يهيِّئن فراشاً وثيراً لضيفهم العجوز . غير أنّ « أوليس » رفض النومَ على الفراش الوثير ، وآثر افتراش جلد ثور في الحظيرة . أمّا « بينيلوب » فإنّها صعدت إلى غرفتها تواكبها وصيفاتها ، لتستلقيَ على سرير آلامها الذي بلّلته بدموعها طوال عشرين عاماً

قبلَ الانتقام

ظلَّ « أوليس » ، حتى موْهِنٍ من الليل ، يتقلَّب على فراشه الجلديّ ، ويقلِّب الأمور على وجوهها كافَّةً ، ويتساءل : كيف سيتحدّى وحدَه أعداءه الكثيرين ؟

ثم راح يناجي نفسه :

ـ صبراً جميلاً أيُّها القلب المعذَّب ! لقد قاسيتَ أهوالاً أعظم يوم سكب العملاقُ وحيد العين نخاع رجالك على الأرض ، وراح يلتهمهم أمام عينيك . ومع ذلك فقد تمالكت حتى احتلت عليه حيلتك البارعة ، وسملت عينه الواحدة ، وخرجت وبقيَّةَ رجالك سالمين من غاره .

وبينما « أوليس » مسترسل في همومه وهواجسه هذه تراءت له الربَّة « أثينا » بشكل امرأة عاديّة ، وقالت له :

ـ حتَّامَ تظلُّ ساهراً قلقاً يا أتعس الخلْق ؟ فهذا البيت بيتك ، وفيه زوجك مع خير ولد يشتهيه والدٌ . نَم الآن ولا تفكِّر بالغد ، فمن تنصره الآلهة فلا غالبَ له .

ونام « أوليس » قريرَ العين حتى الصباح ، وفي الصباح رفع صلاة « لزوس » ، وضرع إليه أن يُظهرَ له علامة ، أو أن يتنبَّأ له أحد الناس نبوءة ، ليطمئنَّ قلبُه .

وما إن أتمَّ « أوليس » صلاته وضراعته حتى أرعدت السماء ، وصفحتُها الزرقاء خلوٌ من أيّة غيمة أو سحابة عابرة . وفي اللحظة نفسها سمع إحدى نساء القصر تتنبّأ قائلة :

ـ إيه « زوس » ، سيِّدَ السماء وربَّ الأرباب

والمائتين ! لقد جعلتَ السماء المكوكبة تبرق وترعد ، فهذه ، ولا ريب ، علامة ترسلها لأحدهم . فهلاّ استجبتَ دعائي أنا أيضاً أيّها الإله القدير ، وجعلت هذا اليومَ آخر يوم تقام فيه وليمة لطالبي يد سيّدتي ، لأنّي ما عدت بقادرة على خدمتهم وتلبيةِ حاجاتهم الكثيرة !

ولمّا سمع « أوليس » رعد السماء الذي أعقبه دعاء المرأة سُرّ سروراً عظيماً ، إذ رأى في ذلك العلامةَ الأكيدة لانتصاره على خصومه .

ثم دخل « تيليماك » الصالة بثيابه البهيّة وهو يتقلّد سيفه ورمحه . فقالت له الخادمة إنّ الشيخَ الغريب رفض الفراش الوثير الذي قُدّم له ليلةَ البارحة ، ونام في الحظيرة على جلد ثور . إنزعج « تيليماك » للخبر ، وما عتّم أن خرج تتبعه كلابُه السريعة ، وقصد ساحة المدينة الكبرى

أمّا الخادمة « يوريكليا » فأوعزت إلى الوصيفات

والخدم بإعداد الموائد للوليمة الكبرى احتفاءً بعيد « أبولون » . فطفق هؤلاء يهيّئون المكان ويرتّبونه . فالقوا الطنافسَ الجميلة فوق المقاعد ، ووضعوا الكؤوس والأباريق الفضيّة على الموائد . ونقلت النسوةُ المياهَ المعدنيّة من النبع القريب ، وقُطّع الحطب لإضرام النّيران . وجيء بالخنازير ، والعجول ، والمعز ، والنعاج ، لتُذبح وتُشوى . كلّ هذا و« أوليس » القاعد على العتبة يراقب الهرج والمرج في عقر داره ، ويهزّ رأسه . فحيّاه بعض الخدم وهم يمرّون به . وسخر منه البعض . وانتهره آخرون وطلبوا إليه أن يرحل .

ولمّا أُعدّ الطعام والشراب توافدت جماعاتُ الأسياد ، طالبي يد « بينيلوب » ، واتّخذوا مجالسهم على المقاعد الوثيرة ، إذ كانوا مزمعين أن يحتفلوا بالعيد في الصباح الباكر . أمّا في ذوات نفوسهم فكانوا يدبّرون المكيدة لاغتيال « تيليماك » . وثارت ثائرتهم أكثر حين رأوه يقدّم ، بنفسه ، الطعامَ بسخاء

للمتسوِّل العجوز ، ويقول له عــلى مسامعهم : « كلْ واشرب بهناء أيُّها الضيف الكريم ، والويل لمن تسوِّل له نفسُه إيذاءك بكلمة » .

وكانت دهشتهم أعظمَ حين استدار إليهم « تيليماك » ، بعد مسايرة الغريب ، وقال لهم :

ـ أمّا أنتم يا هؤلاء ، فالزموا السكوتَ وحافظوا على آداب الضيافـة لئلاّ ينقلبَ المكان إلى ساحة نزال واقتتال .

فعضَّ الحضور على الشفاه من الغضب ، وحرَّقوا الأضراس ، لأنَّهم ، للمرَّة الأولى ، يشاهدون « تيليماك » يتكلَّم بهذه الجرأة . غير أنّ أحــدهم ، « ستازيب » المتبجِّح بغناه ، والذي كان لا يَني يلاحق « بينيلوب » ، لم يتحمّـل الإهانة ، فوقف في القوم وقال لهم :

ـ إسمعوا أيُّها الأسياد النبلاء ، إنَّ هذا الشحّاذ الغريب يشاركنا الطعام والشراب من زمان . وهذا شيء حسن ، لأنّه ليس من العدل في شيء ، ولا من اللائق

أبداً ، أن يُحرَمَ ضيوف « تيليماك » الضيافةَ . ولذلك ، أنا أيضاً ساعطيه النصيبَ الذي يستحقّ .

قال هذا ، وتناول بيده الضخمة قَدَمَ ثور من سلّةٍ أمامه ، وقذف بها « أوليس » الذي حاد عنها بأن نكّس رأسه وهو يبتسم له ابتسامةً ساخرة ماكرة .

فصاح « تيليماك » بغضب :

ـ إنَّك لمحظوظ يا « ستازيب » لأنّك أخطأت الغريب . ولولا ذلك لكنت خرقتُ صدرك برمحي هذا ، ولكان والدك ، بدل أن يفرح بعرسك ، أقام عليك مناحة وأعدّ هنا جنازتك .

ثم صاح « تيليماك » بالآخرين :

ـ لقد حذّرتكم يا قوم بانّي لا أريد أن أرى أحداً يتواقح في هذا البيت ، أو يتصرّف تصرُّفاً أرعنَ . كنتُ إلى الأمس فتى غريراً ، أمّا اليوم فانا سيّد هذا البيت ، وساضع حدّاً لهذا الابتزاز الفاضح .

أما كفاكم تذبحون خرافي، وتستبيحون خــبزي؟ وإذا كنتم تتآمرون على قتلي، فهيّـا، أنا مستعدّ لمنازلتكم جميعاً، لأنّه أهون عليّ أن أموت في قتال غير متكافىء، من أن أرى بأمّ عينيّ ضيوفي يُهانون.

وظلّوا كلُّهم صامتين، حتى انبرى «آجيالوس» يقطع الصمت، ويخاطب الحضور:

– أيُّها الأصدقاء! ينبغي أن تُصغوا إلى قول الحقّ وتذعنوا له، لا أن تردُّوا عليــه بالسخط والشماتة، لأنّه ليس من اللياقة بأن تهينوا غريباً أو خادماً من الخدم في بيت «أوليس». ولكن اسمحوا لي بأن أوجّه كلمة «لتيليماك» ولوالدته، فاقول لهما: إنّكما، طالما كنتما تتوقّعان عودة «أوليس»، فما من أحد منعكما من هذا الحقّ. أمّا وقد بات من المؤكّد أنّ «أوليس» لن يعود، ولن نراه بعدُ، فاذهب يا «تيليماك» واجلس بجوار أمّك، وقل لها بأن تختار من بين هؤلاء الأسياد زوجاً، وهكذا يكون منزلُها حيث زوجُها، ويبقى لك أنت هذا القصر.

فردَّ عليه «تيليماك» الحكيم:

– يا «آجيالوس»، إنّني لا أؤجّل ولا أؤخّر زواج أمّي، بل بالعكس، فإنّني أنصحها بالزواج بمن تشاء. كما إنّي مُزمع أن أقدّم لها، بالمناسبة، الهدايا السنيّةَ. غير أنّه ليُخجلني أن أجبرها على ترك هذا المنزل.

كان السادة قد شبعوا وأُتخموا حتى الكِظّة من الطعام الدَّسِم الذي التهموا. إلاّ أنّ طعاماً من نوع آخر كان يُعَدُّ لهم، لو يدرون، لذيّاكَ المساء، طعاماً غيرَ مرغوب فيه، يُعدّه هذه المرّةَ البطلُ الصنديد، «أوليس»، لأنّ القوم كانوا هم البادئين بحياكة الجريمة، والبادىء أظلم.

قوس « أوليس »

دخلت « بينيلوب » القاعة الكبرى ومعها قوسُ « أوليس » وجَعْبَةُ سهامه ، تتبعها وصيفاتها يحملن صنـــدوق الفؤوس . ووقفت في وسط الحضور المتربِّعين على كراسيهم ، وخاطبتهم :

ـ إسمعوا يا من اتَّخذتم من هـــذا القصر ، في غياب سيِّده ، مَجْلِساً لـــكم ، ومطعماً كلَّ يوم ، وعذرُكم في ذلك رغبةُ كلِّ واحد منكم في الزواج بي . حسناً يا قوم ! لقد آن الأوانُ أخـــيراً لاختباركم ، واختيارِ زوجٍ لي من بينكم (ورفعت هنا قوس زوجها في يدها) . أنظروا إلى هـــذه القوس ، إنّها قوس « أوليس » ، فمَن منكم يقدر أن يوتِّرها بيُسر ،

ويمرِّرَ سهمه خلل حلقاتِ الفؤوس الاثنتَي عَشْرَةَ ، كما كان يفعل زوجي ، سأتبعه وأترك من أجله بيتَ شبابي هذا الذي سأظلُّ أذكره حتى في أحلامي .

قالت « بينيلوب » هـــذا وأوعزت إلى الراعي « أوميه » بإعداد القوس والسهام والحلقـات استعداداً للمباراة . وما إن تناول الراعي الأمين قوس سيِّده ، ووضعها بإزاء السادة ، حتى أجهش في البكاء . فانتهره « أنتينوس » وأمره بان يصمت ، أو أن يذهب ويبكي في الخارج .

عندئذ وقف « تيليماك » وخاطب الجمـــاعة وهو يمزج الجدَّ بالسخرية المرَّة :

ـ عندما أسمع أنَّ امرأة حكيمة كامّي ستترك هذا المنزلَ لتلتحق برجل آخرَ ، يساورني الضحك والبكاء معاً ... ولكن ، لا باس ، فهيّا إلى المباراة يا قومُ ، للفوز بامرأة لا مثيلَ لها على أرض « إيثاكا » ، لا بل على ظهر هـذه القارّة برمّتها . على كلِّ حال

كلّكم تعرفون ذلك ، ولا حاجة لإطراء الصفات التي تتمتّع بها أمّي . فبَدارِ بَدارِ إلى شدّ قوس « أوليس » للفوز بيد زوجه الجميلة . ولكنْ تسمحون لي بأنْ أبدأ أوّلاً .

وألقى « تيليماك » عن كتفه وِشاحه القرمزيّ ، وتخلّى عن سيفه ، وراح يزرع ويُثبت ، على مرأى الحضور ودهشتهم ، الفؤوس الاثنتي عشرة في خطّ مستقيم ، وعلى طول القاعة الفسيحة . وبعد أن أتمّ عمله هذا انتصب واقفاً على العتبة ، وقوسُ أبيه في يده . ولكنّه عبثاً حاول توتيرها . ثلاثَ مرّات جرّب ذلك ، ولكن من غير جدوى . وكاد في الرابعة ، وبعد جهد جهيد ، أن ينجح ، لو لم يومىء إليه والدُه بأن يكفّ عن المحاولة ، ويدعوَ إليها سواه . فتشجّع « تيليماك » وعاد من جديد يحثّ السادة على تجربة القوس :

ـ أوّاه ! إنّه لمن المؤسف حقّاً أن أخيّب ظنّ والدتي بي . سأبقى دوماً رجلاً لا حَولَ له ولا طَول.

ربّما لأنّي فتى بعدُ ، ولم يشتدّ زندي حتى أنتقم ممّن يعيّرني . فهلمّوا أيّها النبلاء ! إنّكم تبزّونني قوّةً ! جرّبوا هذه القوس !

ثم وضع « تيليماك » القوس والسهم على الأرض ، وأخذ مكانه بجانب الغريب قرب العتبة .

عندئذٍ نهض « أنتينوس » ووجّه الكلام إلى زملائه :

ـ ألا انهضوا أيّها الأصدقاء، وليحاولْ كلٌّ بدوره . لنبدأ من الشمال .

قال « أنتينوس » هذا لأنّه كان إلى أقصى اليمين ، ويريد أن يبقى حتى النهاية ، لاعتقاده أنّ الجميع سيخفقون باستثنائه . وهكذا يُعرفُ قدره ومقدرته .

فوافقه الجميع . وكان أوّل مَن نهض هو « ليبوديس » الجالس في أقصى الصالة ، وهو الوحيد الذي كان لا يتحمّل ظلم القوم ، واستهتارهم ، وسوء سلوكهم .

تناول القوس وحاول توتيرها ، فعجزت يداه الكليلتان عن شدّها . فوضعها أرضاً ، والتفت إلى زملائه :

ـ أيُّها الأصدقاء ، إنّني أعجز من أن أوتّر هذه القوس ، فليحاول ذلك سواي ممّن هو أقوى منّي ، لأنّ الكثيرين هنا يودُّون الاقتران بزوج « أوليس » . غير أنّي أرى أنّ هذه القوس ستسبّب هلاككم جميعاً ، لذلك أنصحكم بالبحث عن زوج أخرى خارج هذا القصر .

وانسحب إلى مكانه .

عندئذٍ احتدَّ « أنتينوس » ووجّه إليه هذه الكلمات القاسية :

ـ « ليبوديس » ! بأيّة كلمات فظيعة نطق فمك ؟ إنّك أثرتني . ويحَك ! كيف تقول إنّ هذه القوس ستكلّفنا حياتنا جميعاً ؟ ولكن لماذا ؟ ألأنّك أنت لم تستطع شدّها ؟ ألأنّ أمّك الفاضلة ولدتك ، دون الجميع ، أعجزَ من أن توتّر قوساً وترشق سهماً ؟

وأمر « أنتينوس » بأن تُضرم نارٌ عظيمة وتطرّى فوقها القوس ، وتُمسحَ بالدهن حتى تلين . فصدع الشبّان بأوامره . ولكنّهم عبثاً حاولوا توتير قوس « أوليس » وهم يمرّرونها بينهم من يد إلى يد .

هنا خرج راعيا الأغنام والخنازير ، فتبعهما « أوليس » على الأثر . وما ان اجتازا ساحة القصر حتى خلا بهما « أوليس » ، وقال لهما :

ـ لو صدف أنْ عاد « أوليس » إلى قصره ، فهل تقفان إلى جنبه ، أم انّكما تنضمّان إلى خصومه ؟

فأجابه راعي الثيران :

ـ أيّها الإله « زوس » ، حقّق لي أمنيّتي ، واجعلْ « أوليس » يعود ، وعندئذ ستعلم مدى قوّة ساعدي للدفاع عنه !

وضرع الراعي « أوميه » بدوره إلى جميع الآلهة بأن تُعيد سيّده إلى القصر .

ولمّا تأكّد « أوليس » من إخلاص الراعيين قال لهما :

– أنا هو « أوليس » ، وها انّي قد عُدت إلى أرض الوطن بعد غيبة عشرين عاماً .

وكشف عن ساقه وأراهما أثر الجرح ، فأخذا ينحبان كطفلين . فهدّأهما وتابع :

– بعد أن امتحنتُ أمانتكما وجدتكما الشخصين الوحيدين في هذا القصر الباقيين على العهد . لذلك ، إذا قُدّر لي أن أقهر أعدائي ، كافأتكما على إخلاصكما. وهذي هي خطّتي ، سابوح لكما بها : إنتظرا حتى أجرّب توتير القوس بدوري . طبعاً ستثور ثائرةُ الجماعة لهذا المطلب . عندئذ ناولني أنت يا « أوميه » القوسَ ، ولا تبالِ بصرخات احتجاجهم . لكن ، قبل كلّ شيء ، قُلْ للنساء بأن يبقين في مقصوراتهنّ ويُغلقن الأبواب خلفهنّ ، وبالاّ يبارحنها مهما سمعن من أصوات وبكاء وعويل في الصالة الكبرى ، لأنّي

مزمع أن أُبيد أعدائي عن بكرة أبيهم .

ثم دخل « أوليس » الصالة وجلس في مكانه . وتبعه بعد حين الراعيان . وفي هذه الأثناء كان « يوريماك » يقلّب القوس بين يديه ويدفّئها على النار . وعبثاً حاول توتيرها فصرخ يائساً :

– إنّني ، بالحقيقة ، لأشعر بالخجل لأنّي عاجز عن توتير قوس « أوليس » الذي نتنافس كلّنا هنا على زوجه . ليتفضّل غيري ويجرّبْ قوّته .

فتدخّل « أنتينوس » وطلب بأن يعاود القوم الشرب والأكل ، ونصح بأن تؤجّل المباراة إلى الغد . وإنّما قال هذا تبريراً لنفسه ، لأنّه خاف أن يخفق بدوره في توتير القوس .

فوافقه الجميع ، وعادوا إلى طعامهم . غير أنّ « أوليس » قطع عليهم شهيّتهم ، حين وقف بأسماله وهيئته الزريّة وقال لهم :

– أتسمحون بهذه القوس الصقيلة ؟ لأنّي أحبّ

أنا أيضاً أن أجرّب حظّي ، لأرى إذا كنت ما أزال أحتفظ بقوّة زندي ، وبالحيويّة التي كانت تحرّك أعضائي المَرِنة

فاحتجّ القوم على الإهانة ، وهاجوا وماجوا ، لأنّهم خافوا أن يتمكّن الشحّاذ العجوز من توتير القوس فيخذلَهم ويُلحق بهم العار .

فصاح به « أنتينوس » :

– كيف تجرؤ على هذا أيّها الغريب التعس ؟ ألا يكفيك أنّك تشاركنا الشراب والطعام حتى تأتي الآن وتتحدّانا ؟

وهنا تدخّلت « بينيلوب » :

– ليس من العدل ولا من اللياقة في شيء يا « أنتينوس » أن تهين ضيفاً « لتيليماك » . ثم ، أتظنّ ، إذا قدر الرجل الغريب على توتير القوس ، أنّني أذهب معه وأكون له زوجاً ؟ لا يحلمنّ بهذا ! أكمل طعامك لأنّ قلقك هذا لا مبرِّرَ له .

وبعد أن طلب « تيليماك » من أمّه أن تصعد إلى مقصورتها وتتركَ له حرّية التصرُّف في القصر ، خاطب القوم بصوت الآمر الناهي :

– أنا سيّد هذا القصر يا قوم ، ولي وحدي يعود حقُّ التصرُّف بقوس أبي ، فأعطيها لمن أشاء ، وأمنعها عمّن أشاء .

وفي غمرة هياج الحضور واستنكارهم لجرأة « تيليماك » ، نهض الراعي « أوميه » وتناول القوس وذهب ليعطيها « أوليس » . فثارت الجماعة ثانيةً ، وصاحت به صيحة واحدة :

– مكانَك ! إلى أين تأخذ القوس أيُّها الراعي الأخرق ؟

وكاد المسكين ، من فرط خوفه وخجله ، أن يعيدها إلى مكانها ، لو لم يشجّعه « تيليماك » على إعطائها « لأوليس » .

وتناول « أوليس » بلهفة قوسَه الحبيبة من يد

« أوميه » ، وبخفّةٍ ورشاقة أنشأ يقلّبها بين يديه ، ويتفحّصها ، ويُنبض وترها ، كمن يتأكّد من متانتها وسلامتها من البلى والتسوّس .

ووشوش بعضهم لبعض :

– لا ريبَ أنّ هذا الشحّاذ الغريب خبيرٌ بفنون الصيد ورمي السهم .

وقال آخرون :

– أنظروا كيف يعالج القوس الصقيلة كما يدوزن المطربُ الفنّان أوتارَ قيثارته .

ورفع « أوليس » قوسه أمامه بتأنٍّ واتّزان ، ودونما أيّ جهد نَتَرَ وترها صوبه ، وأرخاه ، فَنَبَر ورنّ ، وتجاوب رنينُه الشبيه بصوت السنونو في أرجاء القاعة الصامتة . وفي الخارج دوّى الرعدُ في سماءٍ زرقاءَ صافيةٍ . فشحب القوم ، وذهلوا للظاهرة الغريبة أيّما ذهول . واغتبط « أوليس » في سرّه لأنّ دويّ الرعد كان علامة له بأنّ الإله « زوس » معه .

فتناول من جَعبته سهماً رائشاً ، وبعد أن ركّزه على القوس ، وثبّت طرفه الآخر في الوتر ، سحب الاثنين صوبه ، وسدّد ، وأطلق السهم البرونزيّ الذي انطلق ومرق خلل حلقات الفؤوس الاثنتي عشرة ، ونفذ منها جميعاً من غير أن يمسّها .

وحينئذ رمق « أوليس » ولده « تيليماك » من تحت حاجب متوتّر كالقوس ، وقال له بين ساخر وجادّ ، وعلى مسمع الحضور :

– لا عليك أيّها الفتى ، فزندي ما يزال ، كسابق عهده ، وَتَراً عُرُدّاً . فسارع الآن إلى إعداد الوليمة التي اتّفقنا ، أنا وأنت ، على إعدادها للمدعوّين ، قبل أن يدركنا الليل .

وبغتةً سلّ « تيليماك » سيفه البتّار بيد ، وبالأخرى قبض على رمحه ، وقفز إلى جوار أبيه يتألّق كنَجْمٍ بسلاحه البرونزيّ .

نهاية الطامعين

وبينا عيونُ القوم على الشحّاذ المشبوه ، وعلى « تيليماك » ، وقد حبس القلقُ منهم الأنفاسَ ، نضا « أوليس » عنه ثيابَه المرقّعة ورماها جانباً ، وقفز إلى العتبة الكبرى برشاقة الفتيان ، وقوسُه وسهامه بيده ، وخاطب الجموع بصوت جهير :

ـ قُضي الأمر ! والآن يا قوم سأسدّد سهمي إلى هدف آخرَ لم يصبه أحدٌ بعد .

وانطلق سهم «أوليس» صافراً ، وأصاب« أنتينوس» في حلقه ، ونفذ من رقبته . فبدأ دم ثخين يتدفّق من منخريه ... وسقط الجبّار المتعجرف على ظهره ، وطارت كاسه من يده ؛ وضربت رِجلُه ، بحركة

مفاجئة ، المائدةَ التي أمامه ودفعتها ، فتساقط الطعام على الأرض .

وكان في القاعة هرج ومرج . وترك القوم مقاعدهم فزعين متدافعين ، وعيونُهم الجاحظة تبحث في الجدران الخالية عن سلاح يدرأون به الشرَّ المُحيق بهم ، إذ لم يكن ثمّةَ لا رمح ولا ترس واقية . فصاحوا « باوليس » ساخطين مهدّدين :

ـ ويحك أيُّها الغريب ! إنّك ، باتّخاذنا هدفاً لسهامك ، إنّما تقرّب أجلك ، لأنّك قتلت رجلاً عظيماً في « إيثاكا » .

فردَّ عليهم « أوليس » :

ـ أيُّها الكلاب المسعورة ! كنتم تظنّونني لن أعود من « طروادة » ، فلذلك رحتم تنهبون بيتي ، وتتعدّون على خدمي ، وتريدون سلبي حتى زوجي وأنا بعدُ على قيد الحياة ! كلّ ذلك من غير أن يردعكم خوفٌ أو حياء . ألا ويلٌ لكم ، لأنّكم اليوم ستهلكون جميعاً .

وانتظمهم رعبٌ شاحب ، وعادت عيونهم تبحث عن مفرّ من المــوت المحدق بهم . وواتت الجرأةُ « يوريماك » وحدَه فقال « لأوليس » :

- إذا كنت حقاً « أوليس » ملك « إيثاكا » الذي يعود إلينا ، فلا مبرِّرَ لديَّ للمظالم التي أُلحقت ببيتك أثناء غيابك . غير أنّ الذي كان السببَ في ذلك كلّه هو « أنتينوس » الذي أرديته صريعاً ، وقد كان يطمح بحكم هذا البلد أيضاً بعد الغدر بولدك . أمّـا الآن ، وقد قُتل « أنتينوس » بحقّ ، فنرجو أن تعفوَ عن الباقين ، ونحن مستعدّون أن نعوّض أضعافاً مضاعفة عن كلّ ما أُلحق بك من خسارة .

فأجاب « أوليس » :

- حتى لو أعطيتَني ، كتعويض ، جميع خيرات آبائك يا « يوريماك » ، وأضفتَ إليها كلّ ما يملك هؤلاء القوم ، فإنّي لن أعفو عنكم . وإنّي لقاتِلُكم جميعاً ، وفي هذا المكان بالذات . والآن لم يبقَ أمامكم سوى القتال أو الهرب ، إذا كنتم تقدرون على ذلك ،

لأنّـي لا أظنّ أنّ أحداً منكم سيفلت من ضرباتي القاضية .

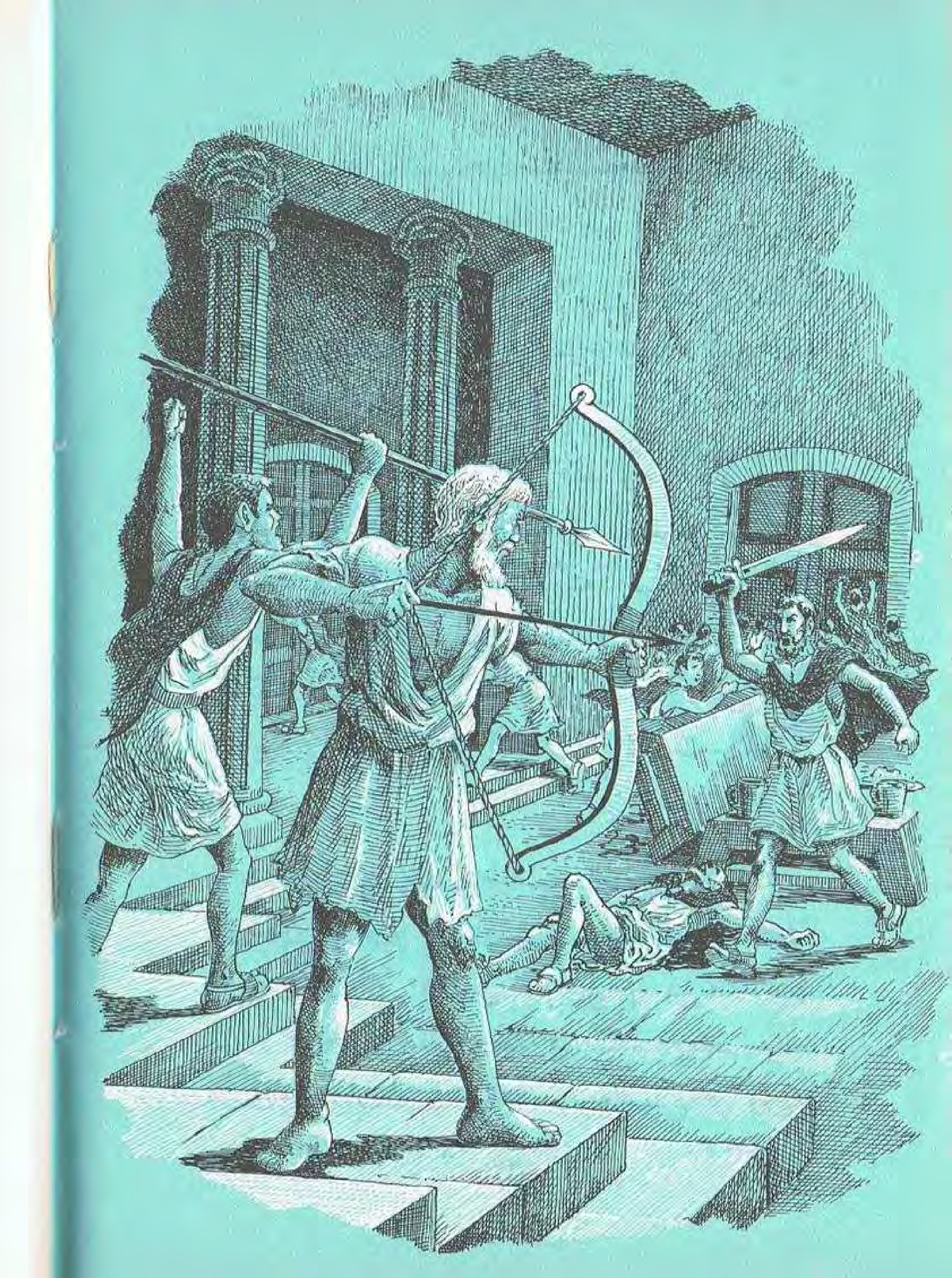
فارتعدت من القوم القلوبُ ، ورجفت الركبُ ، لدى سماعهم هذه الأقوالَ ، فصرخ فيهم « يوريماك » يبثّ فيهم الشجاعة :

- أيُّها الأصدقاء ! إنّ هذا الرجل لجادٌّ في ما يقول . وها هو قد أمسك بقوسه وسهامه ، وإنّه لَقاتلُنا جميعاً إن لم نبادر لمجابهته . فهيّا اجعلوا من الموائد تروساً ضدّ سهامــه القاتلة ، ولننقضّ عليه جميعُنا دفعة واحدة . لنحاول أوّلاً إبعادَه عن العتبة والأبواب حتى يتسنّى لنا النَّفاذُ إلى الخارج لطلب النجدة .

ثم سلّ « يوريماك » سيفــه البرونزيّ ذا الحدّين القاطعين ، وهجم على « أوليس » وهو يزعق فيه زعقته المخيفة . غير أنّ « أوليس » عاجَلَه بسهم تحت ثديه الأيسر ، فخرق صدره ونفذ في كبده . فسقط سيفه من يده ، وارتطم في المائدة ، ثم وقــع على وجهه

فصدمت جبهته الأرضَ ، وأطارت قدماه كرسياً خلفه ، وعلى عينيه أسدل نقابُ المنيَّة .

عندئذ اندفع « أمفينوس » على « أوليس » المجيد ، ممتشقاً سيفَه ، يريد إزاحته عن الباب ، لكنّ « تيليماك » طعنه من خلف بين كتفيه برمحه البرونزيّ الذي خرق صدره . فسقط في ضجّة كبرى وهو ينطح الأرض بجبهته ، وتراجع عنه « تيليماك » بسرعة تاركاً رمحَه مغروزاً في جسمه . ولمّا وجد والده وحده في ساحة القتال وهو يتحدى الجماهير ، وجثث القتلى تتراكم حوله ، هرع إلى بيت الذخيرة ، لأنّه كان أعزل من كلّ سلاح ، بعد فقد رمحه . وجاء سريعاً بالتروس والرماح والخوذ ، ووقف بجنب والده يسانده . وانضمّ إليهما الراعيان الأمينان وتسلّحوا جميعُهم ، فتدرّع « أوليس » بترسه وخوذته ، ومثله فعل « تيليماك » والراعيان ، وهجم أربعتهم على الجموع هجمةً واحدة ، وراحوا يحصدونهم حصداً ، حتى امتلأت الصالة على رحبها



بالجثث والدماء . ولم يبقَ حياً من بين تلك الجماعة الغفيرة سوى اثنين ، هما الشاعر المنشد ، و « ميدون » صديق « تيليماك » القديم .

ولكي يتأكَّد « أوليس » من إبادة أعدائه ، أخذ يتفحَّص الدار طولاً وعرضاً ، ويقلِّب الجثث لئلاّ يكون أحدهم قد اختبأ تحتها . ولمّا تيقَّن من موتهم كلِّهم ، أمر الخدم بإخراج الجثث وإلقائها بعيداً ، وتنظيف المكان وتطهيره بالنار والكبريت .

وعند المساء صعدت مربِّية « أوليس » العجوز برشاقة الصبايا ، وقلبُها يضحك من الفرح ، إلى مقصورة « بينيلوب » ، لتبشِّرها بأنَّ زوجها « أوليس » العائد ينتظرها في الصالة الكبرى .

"بينيلوب" تتعرَّف إلى "أوليس"

قالت المربِّية « لبينيلوب » :

- ابنتي « بينيلوب » ! إستيقظي ، وتعالَي لترى عيناكِ مَن اشتهتا رؤيته كلَّ يوم . لقد عاد أخيراً « أوليس » ! إنّه في بيته ، وقد اقتصَّ أخيراً من أعدائه بأن أبادهم جميعاً .

قالت لها « بينيلوب » ضاحكةً ساخرةً ، وهي لا تصدِّق كلمة من كلماتها :

- أيَّتها الأمُّ الطيِّبة ، لقد شِخْتِ بما فيه الكفاية حتى خرفتِ . عودي إلى غرفتك غيرَ مطرودة ، فلو أنَّ خادمة أخرى غيرك عكّرت عليَّ نومي بخبر كهذا لكنتُ صَبَبْت عليها جام غضبي .

إذهبي بسلام ، فشيخوختك تشفع بك !

إلاّ أنّ العجوز « يوريكليا » لم تتحلحل ، وراحت تكرّر القول بهدوء ومن غير انفعال :

ـ أنا لا أمزح يا عزيزتي ! قلت لك « أوليس » ينتظرك تحت . كان متنكّراً بزيّ الشحّاذ الذي رأيتِ . « تيليماك » كان يعرفه من زمان ، لكنّه لم يشأ كشف أمره حتى ينتهيا من المتآمرين .

وقفزت « بينيلوب » من سريرها وقلبُها يرقص في صدرها ، واحتضنت « يوريكليا » لِلَحظاتٍ ودموعُها تنهمر على خدّيها . ثم نزَلت على عجلة إلى الطابق الأرضيّ وروحُها تضطرب بين ضلوعها ، حائرةً ، لا تدري هل تخاطب زوجها الحبيب من بعيد ، أم تقترب منه وتحضن رأسه ويديه وتقبّلها . وجلست قبالته على ضوء الموقد . وكان هو جالساً مطرقاً ، يسند ظهره إلى العمود ، لا يرفع عينيه ، بانتظار ما ستقول زوجته بعد طول غيابه . وظلّت « بينيلوب »

على صمتها طويلاً ، تارة ترمق زوجها بنظرة خفيّة ، وطوراً تعود إلى نفسها قلقةً حائرة .

عندئذ بادرها « تيليماك » :

ـ أمّاه ، أيّتها الأمّ القاسية ، كيف تقفين هكذا غيرَ مبالية ، وبعيدة عن والدي ، بعد هذا الغياب الطويل ؟ كيف لا تقتربين وتجلسين بقربه ، وتتحدّثين إليه ؟

فأجابته « بينيلوب » :

ـ أوّاه يا ولدي ، أحسّ بقلبي يُعصر ، فيخونني النطق . ولكن ، إذا كان هذا حقّاً « أوليس » ، فاعلمْ أنّه سيعرف واحدُنا الآخرَ بالتأكيد ، لأنّ هناك علاماتٍ تَعارَفْنا عليها نحن الاثنين فقط .

قالت هذا ورجعت إلى مقصورتها .

وقال « أوليس » « لتيليماك » ، وهو يبتسم :

ـ لا تضايق يا « تيليماك » أمّك التي تريد أن تمتحنني . إنّها تجهلني لأنّي ما أزال بثيابي الرثّة

البالية . ولكن مهلاً . فامامنا الآن شيء آخر يجب أن نفكّر به . لقد صرعنا ، أنا وأنت ، خيرة أبناء العائلات في هذا البلد ، فما العمل الآن ؟

ـ الأمر يعود لك ، أبتاه العزيز ، لأنّك أحكم الناس بشهادة الجميع ، وأرجحُهم رأياً .

ـ حسناً إذن . إذهب الآن واستحمّ وبدّل ثيابك . وقل للنساء أن يتحلّين بأجمل زينتهنّ ، وليعزف المنشد على قيثارته ألحاناً شجيّة ، وليضجّ القصر بأصوات القصف والعزف والرقص ، حتى يظنّ الكلّ أنّنا نحتفل بعرس عظيم . أمّا مصرع الجماعة فيجب أن يظلّ مستوراً حتى نصل إلى منزل والدي « لاييرت » ، وهناك سنعمل حسبما تقتضي الحاجة .

وانقلب القصر ، الذي كان بالأمس ساحة عراك واقتتال وموت ، إلى حلبة رقص وغناء ، بحيث اعتقد كلُّ مَن مرَّ به أنّ القوم يحتفلون بزواج « بينيلوب » بواحد من طلاّب يدها الكثيرين . كان « أوليس » قد تدثّر بجلباب ومعطف جميلين . وقامت الربّة

« أثينا » بدورها فاسبغت عليه جمالاً لا يضارَع . وحين أقبل وجلس قبالة « بينيلوب » ظنّته أحد الخالدين . وخاطب « أوليس » زوجه :

ـ أيّتها الزوجة الغريبة الأطوار ، لكانّ قلبك وحدَه ، دون سائر النساء ، قُدَّ من صخر ، وإلاّ ما نفرتِ عن زوجك هذا النفورَ بعد غيابه الطويل عنك .

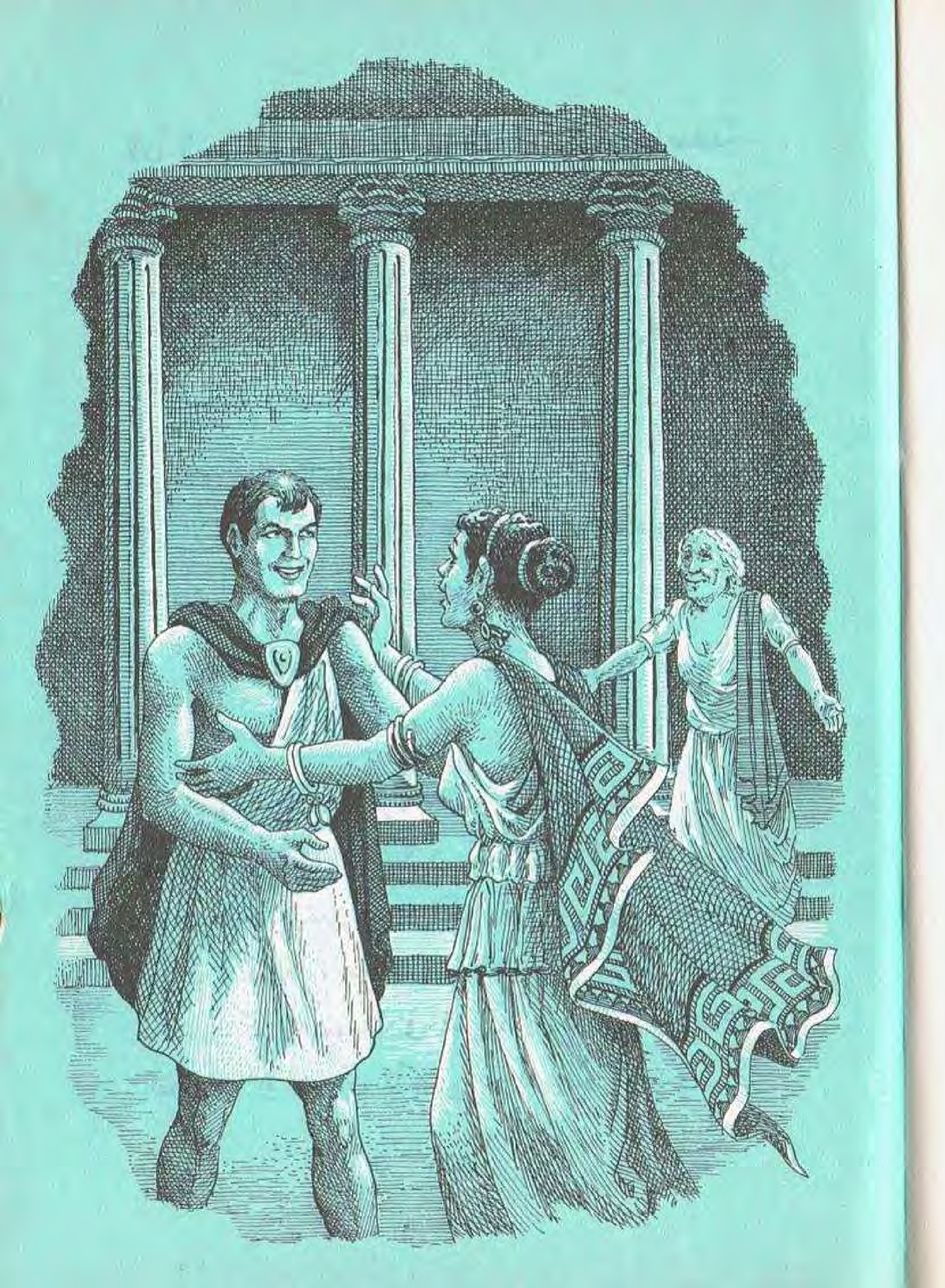
ثم التفت « أوليس » إلى مربّيته :

ـ أمّا أنت فهيّا أعِدّي لي سريري ، لأنّي أريد أن أنام .

وقالت لها « بينيلوب » بدورها :

ـ إفعلي كما يقول لك . أخرجي له السرير الخشبيّ الذي صنعه بيده ، وزيّنيه ، ومدّي فوقه أغطيته البرّاقة .

إنّما قالت « بينيلوب » هذا لتتأكّد إذا كان حقّاً زوجها . واضطرب « أوليس » وصاح بزوجه :



ـ ولكنْ مَن أخرج سريري من مـــكانه ؟ إذ يستحيل حتى على أقوى الرجال وأحذقِهم زحزحته ! لأنّ سريري هذا مصنوعٌ بطريقـــة خاصّة ، وهو مطعَّم بالفضّة والذهب والعاج . بيدي صنعتُه من جذعٍ أخضرَ لزيتونة وارفة الظلّ كانت تنتصب في وسط الساحة . وسرُّ سريري يعرفـــه اثنان : أنت وأنا ، فكيف تقولين الآن بان يُخرج هذا السرير من مكانه حيث أثبتُّه ؟

إرتعدت ركبتا « بينيلوب » وشعرت بقلبها يهبط إلى قدميها ، لأنّها عرفت زوجَها من وصفه السريرَ . ونهضت باكيةً وركضت صوبه ، وارتمت بين ذراعيه تعانقه وتقبّل جبينه ، وتقول :

ـ إيه « أوليس » ، يا مَن كنتَ دائماً أحكم الرجال وأرجحهم عقلاً ، لا تحقد عليّ لأنّي لم أُقبل عليك لأوّل وهلة . لقد بالغتُ في الحذر والحيطة كلَّ هذه المدّة ، وأمسكتُ قلبي في صدري جامداً كالحجر ، خوفاً من أن يخدعني أحد الرجال بكلماته المعسولة .

لأنّ الخدّاعـين المتملّقين كثيرون . ولمّا وصفتَ سريرك تيقّنتُ أنّـك أنت زوجي الحبيب « أوليس » !

واسترسلت « بينيلوب » في البكاء ، وبكى معها « أوليس » وهو يشدّها إلى قلبه .

وفي تلك الليلة قصّت « بينيلوب » على « أوليس » كلّ الآلام والتجارب التي عانتها ، وروى « أوليس » جميع المحن والمخاطر التي مرّ بها .

ولمّا بزغ فجر اليوم التالي نهض « أوليس » من سريره وقال لزوجه :

ـ إنّي ذاهب لزيارة والدي في مزرعتـه ، لأنّ طول غيبتي عنه قد يكون آلمه كثيراً . أمّا أنتِ ووصيفاتك فابقين في غرفكنّ ، لا تبارحنهـا مهما حدث . لأنّه ، مع شروق الشمس ، سيعلم الجميع بأنّنا فتكنا بخصومنا في عقر دارنا ، فيهجمون على القصر . إيّاك أن تتّصلي بأحد ، أو تتحدّثي إلى

أحد ، أو تستقبلي أيّ كائن كان .

ثم ألقى على كتفيه أسلحته الحربيّة ، وأيقظ « تيليماك » والراعيين وأمرهم بأن يتسلّحوا جيّداً استعداداً للمعركة القادمة .

كانت الشمس قد أشرقت حين غادروا القصر ، فسربلتهم الربّة « أثينا » بسحابة حجبتهم عن الأنظار ، إلى أن صاروا خارج المدينة .

السّلام

لمّا وصل « أوليس » إلى منزل أبيه « لايرت » أسلم أسلحته الحربيّة « لتيليماك » وللراعيين، وقال لهم أن يدخلوا ويُعدّوا طعام الغداء. أمّا هو فسيعرّج على والده في البستان، ليرى إذا كان سيعرفه بعد طول الغيبة.

دخل « أوليس » البستان فوجد والده ينكش حول نبتة، وهو في ثياب رثّة متّسخة، وقد اعتمر قبّعةً من جلد الماعز، وتقفّز لئلاّ يجرح الشوك يديه. كان « لايرت » قد هزل وشاخ كثيراً من فرط الهمّ والغمّ. فوقف « أوليس » تحت شجرة إجّاص، وأخذ يبكي. ثم تماسك وتساءل: أيذهب ويأخذه بين ذراعيه ويقبّله ويخبره بكلّ شيء، أم

يكتفي بسؤاله وامتحانه من بعيد؟ فرأى، بعد إعمال الفكر، أن يمازحه أوّلاً، فاتّجه صوبه وخاطبه:

ـ أيُّها العجوز، لا يبدو أنّك تجهل أعمال الحقل، لأنّ كلّ ما حولك منسّق مرتّب. ولكن لا يحقدنّ قلبُك لملاحظتي هذه: إنّك، رغم تقدُّمك في السنّ، تجهد نفسك، وتهمل هندامك، لأنّه لا يبدو عليك أنّك من الخدم الذين يهملهم سيّدهم لكسلهم وتقاعسهم. بالعكس، فعليك سِيماءُ ملك. فهلاّ أجبتَني بإخلاصٍ: خادمُ مَن أنت؟ ولمن هذا البستان الذي تُعنى به؟ ثم قل لي صادقاً: هل المكان الذي نحن فيه هو بحقٍّ « إيثاكا » التي قصدتُها من بعيد؟ لأنّه قد حلّ عليَّ ضيفٌ من « إيثاكا »، وزعم أنّه ابنٌ لرجل يدعى « لايرت »، فاكرمتُ وِفادتَه، وأسبغت عليه النِّعم والهدايا.

فاجابه أبوه دامعاً:

ـ أيُّها الغريب، إنّك في البلد الذي تبحث عنه.

غير أنّ « إيثاكا » هـذه يحكمها اليومَ قومٌ عُتاة ظالمون. ولكنْ ، بحقِّك ، أصدقْني القول بدورك: منذ كم سنة حلّ عليك الضيف الذي ذكرتَ ؟ فهو ولدي « أوليس » . ولكن لا أعتقد ذلك ، لأنّ الأسماك قد تكون التهمت ولدي ، أو افترسَتْه الضّواري والطيور الكاسرة .

قال « لايرت » هذا واحتفن الترابَ بيديه الاثنتين ، وأخذ يَهيله على رأسه الأشيب وينخرط في البكاء .

فتفطّر قلب « أوليس » ، وشعر بالاختناق ، فاندفع صوب والده وأخذه بين يديه ، وطفق يقبّله ويبكي ، ويقول :

ـ أبي الحبيب ، أنا « أوليس » ! أنا ولدك العائد ! كفَّ عن البكاء الآن ! ثم أبْشِرْ أبي ، لأنّي كسرت شوكة الظالمين ، وأبدتهم جميعاً .

فقال الشيخ وقد تماسك :

ـ إذا كنتَ حقّاً ولدي « أوليس » فاعطِني الدليلَ على ذلك .

ورفع « أوليس » ثوبه عن ركبته وقال :

ـ أنظرْ أبي إلى هـذا الأثر تحت ركبتي ، ألا تذكره ؟ إنّه أثر الجرح الذي أحدثته نابُ الخنزير البريّ يوم طاردته وقتلته وأنا فتى بعدُ . تريد دليلاً آخر ؟ إذاً اسمعْ : تبعتُك مرّةً ، وأنا صغير ، في هـذا البستان بالذات . فأعطيتَني سلّةً صغيرة وضعتَ فيها ثلاثَ عَشْرَةَ إجّاصةً ، وعَشْرَ تفّاحات ، وأربعين تينةً بالتمام . أتذكر ذلك يا أبي ؟

عندئذ أحاط الشيخ رقبة ولده بذراعيه الكليلتين وهو يبكي ، ويبكي .

وحين استردّ « لايرت » أنفاسه رفع وجهه إلى السماء وشكرها لأنّها ردّت إليه ، قبل أن يموت ،

ولده الضائع . ودخـــل الاثنان المنزل مغتبطين كطفلين .

وفي الوقت الذي كان فيه العجوز « لاييرت » وأهل بيته يجلسون إلى مائدة الطعام ، كان نبأ مقتل النبلاء ينتشر في المدينة كلّها . فتوافد النـــاس من جميع الأنحاء ، وأحاطوا بقصر « أوليس » صاخبين مهدّدين . وقام أهل الضحايا الذين في المدينة ينقلون جثث موتاهم على العربات وهم يبكون ويولولون . أمّا جثث الأسياد الذين كانوا يقطنون في الخارج فقـــد حُملت إلى السفن الراسية في المرفـــإ لتُقلّهم إلى بلدانهم البعيدة .

ثم تنادى القوم وعقدوا اجتماعاً كبيراً . فكان أوّل مَن وقف يخطب فيهم هـــو « يوبيتوس » والدُ « أنتينوس » القتيل . فقال دامعـــاً وهو يحرّض الشعبَ على « أوليس » :

ـ أيُّها الأصدقاء ! إنّ « أوليس » قد جلب

شرّاً عظيماً على الآخيّين . فكم من رجال أشدّاء حمل معه على مركبـــه إلى « طروادة » وصار السبب في هلاكهم جميعاً . وها هو اليوم يعود وحـــدَه . ألا ترون في ذلك مكيـــدة كبرى وخيانة لا تُغتفر ؟ والآن قبل أن يلوذ ثانية بالفرار بحراً ، هلمّـوا نحمل عليه حملة واحدة ونثار لقتلانا ، وإلاّ وصمتنا الأجيالُ اللاحقة بالعار إلى الأبد . وإنّـني مستعدٌّ أن أكون أوّل مَن يستشهد في هذه المعركة .

وهنا لم يتمالك « يوبيتوس » فأجهش في البكاء . وتأثر لبكائه جميعُ الحضور تأثُّراً بالغاً ، فهاجوا وماجوا ، وكادوا يندفعون اندفاعاً واحداً على قصر « أوليس » لو لم يخرج منه ، على ضجيجهم وصخبهم ، الشاعرُ المنشد « ميدون » صديق « أوليس » الحميم . فوقف « ميدون » في وسط الجماعة وراح يخطب فيهم بصوت جهوريّ متّزن :

ـ إسمعوا يا سكّان « إيثاكا » ! لم يكن بوســع « أوليس » وحـــدَه أن يقتل جمهرةً من النبلاء

الأشدّاء لولا مساندةُ الآلهة له .

ثم وقف عرّاف المدينـــة وخاطب الجمهور بدوره :

ـ إسمعوا لِما أقول يا ناس ! إنّ أولادكم قُتلوا بسبب شروركم وشرورهم . ولَكَم حذّرتكم من ذلك فلم ترعوُوا . ولكم أنذرتُ أولادكم بأن يكفوا عن سلب أموال « أوليس » فلم يرتدعوا ، بـل تمادَوا في غيّهم وغواياتهم . ولذلك نالوا قِصاصهم . فهلاّ سمعتم الآن نصيحتي الأخيرة : حذارِ ، أقول لـكم ، أن تحاربوا « أوليس » ، لأنّكم ستجلبون على أنفسكم العار والدمار الأكيدَين .

لدى سماع أقوال العجوز العرّاف أخلى المكانَ نصفُ الجماهير المحتشدة . أمّـا الباقون ، الذين لم تعجبهم أقواله ، فإنّهم تدرّعوا بدروعهم ، وامتشقوا أسلحتهم ، وزحفوا متراصّين على قصر « أوليس » ، يتقدّمهم « يوبيتوس » والد « أنتينوس » .

وهنا تدخّلت الربّة « أثينـــا » ، فقالت للإله « زوس » :

ـ حتّامَ أيُّها الربُّ الأعظم تُرخي العنـــان لهذه الحرب العوان المشؤومة ؟ متى تضع حداً لها حتى تضع أوزارها ؟

فأجابها « زوس » :

ـ علامَ هذه الأسئلة يا ابنتي ؟ أنتِ التي شئت أن يعود « أوليس » إلى وطنه وينتقم من أعدائه . أمّا وقد أخذ « أوليس » بثاره وانتهى الأمر ، فليتعاهد الطرفان على عَقد السلام بينهما ، وليعُدْ « أوليس » إلى حكم البِلاد كسالف عهده ، ونحن بدورنا سنعزّي القلوب الحزينة ، ونُنسي النفوس الثّكلى موتَ الأبناء والإخوة القتلى . وليعمَّ هكذا الوئامُ والسلام قلوب المواطنين ، حتى تنتعش البلاد وتعود إلى سابق استقرارها وازدهارها .

كان « أوليس » وأهل بيته قد فرغوا من تناول

طعامهم حين دخل « دوليوس » أحد أنصاره ليخبره بأنّ الجماهير الغفيرة، وعلى رأسها « يوبيتوس »، والد « أنتينوس »، تزحف على بيته، بالقِسِيِّ والرماح البرونزيّة. فهبّ هو و« تيليماك » والراعيان، وأبناء « دوليوس » الستّة، يتبعهم على الأثر العجوزان « لاييرت » و« دوليوس »، مدجَّجين جميعاً بالأسلحة البرّاقة، واندفعوا للقاء الجماهير، والتحموا معهم في معركة ضارية.

وبعد قتال قصير قَتَلَ فيه الشيخُ « لاييرت » « يوبيتوس »، وكاد « أوليس » بدوره يقضي على جميع المحاربين الذين في المقدّمة، تدخّلت الربّة « أثينا » وأوقفت الطرفَين عن القتال بزعقة من صوتها الإلهيّ:

– ألا كفّوا يا أهل « إيثاكا » عن هذه الحرب الطاحنة! لا أريد مزيداً من الدماء بعد! تفرّقوا في الحال.

فامتلأت قلوب الجميع من الرعب لسماع صوتها الآمر، وتخلّوا عن أسلحتهم فتساقطت على الأرض.

وهكذا تقهقر أعداء « أوليس » وفرّوا نحو المدينة، وليس لهم سوى رغبة واحدة: أن يبقوا أحياء... أمّا « أوليس » فإنّه اندفع خلفهم كالنّسر في انقضاضه وهو يزعق فيهم بصوت راعد راعب. ولكنّ الربّة « أثينا » أمرته بالتوقّف.

فأطاعها « أوليس » بقلب مغتبط راضٍ. ثم تدخّلت الربّة « أثينا » للمرّة الأخيرة بين الطرفين، وجمعت بينهما بعقد سلام وعهد تحابّ مقدّسين إلى الأبد.

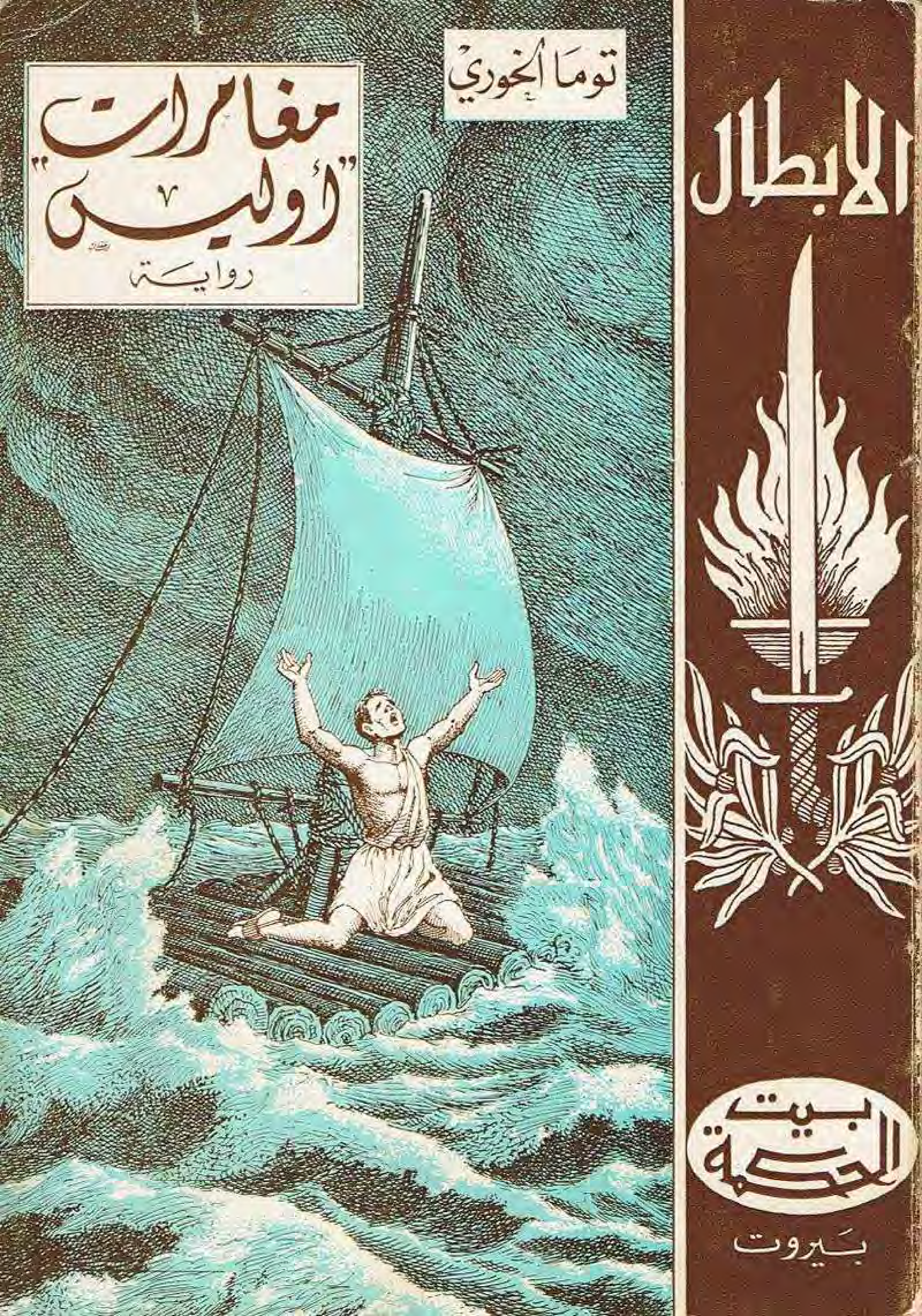
محتوى الكتاب

الصفحة

الصفحة

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩٨٠
على مطابع دار غنـــدور ش.م.م.
بـــيروت

١٩٨٠ – ٣/ ١٥٠


توما الخوري
مغامرات
٧
"أوليس"
رواية
الأبطال
بيت الحكمة
بيروت